الفصل الرابع

المناورة

استخدام القوة تطبيق الإستراتيجية

بوابة فوستيست:

يصعد قائد سلاح الفرسان إلى مرتبة الحليف بالنسبة للخبير الإستراتيجي الأمريكي "ناثان بيدفورد" وذلك رداً على سؤال وجهه إليه بعد شرحه لإستراتيجيته من أجل تحقيق النصر في الحرب الأهلية الأمريكية.

ولكن، على الرغم من أنّ النظرة العامة للقائد العسكري المحنك "فورست" على أنّه قد يكون غريب الأطوار، لكنه كان أمراً بديهياً أنّه كان يتمتع بالعبقرية العسكرية الأولى لعصره، وكالعادة، فقد كان قد حصل على التوالي على صلب الموضوع الذي يتناول في جوهره، حين كان يتحدث عن المناورة واستخدام القوة.

أما بعد انتهاء الحرب التي كانت على وشك أن تبدأ ، أو أن تكون قد بدأت بالفعل، فإن كل قرار قائد عسكري يجب أن يؤخذ على علم بأهمية مفعول المناورة وقوة النيران. شأنها في ذلك شأن جميع التفكير الإستراتيجي الصائب، ذلك لأن "المناورة وقوة النيران" من الأهمية بمكان على نتيجة المعارك وإن كانت في تطبيق الممارسة على حد سواء أو التي يمكن أن تكون شديدة التعقيد.

ومن المفيد القول هنا أن مقاييس الاختبار لسلطة أي زعم إستراتيجي، إنما تتم وفق دراسة مدى ما لديها من تأثير أو عدم تأثر بالتقدم التكنولوجي. وفي هذه الحالة، فبغضِّ النظر عما إذا كانت القوة التي ينبغي تطبيقها، ستكون على يد قوات المشاة لوحدها، أو متى حشدت القوات البرية والبحرية والقوة الجوية بحيث تعمل في انسجام عملياتي، ووفق مبدأ تحقيق الموقع الإستراتيجي المتميز، وإذا لزم الأمر، ومن ثمّ فإنّ التطبيق الحاسم لاستخدام قوة النيران لا يزال يشكل اليوم أساساً في العمل العسكري كما فعلت بالنسبة لكثير من القادة عبر التاريخ، وذلك ما حدث

مع الإسكندر، وجنكيز خان، ونابليون، ونيلسون وغيرهم من الذين واجهوا اعتراضات على ميدان القتال.

ولكن ذلك يعتبر مختلفاً تماماً في القرن الحادي والعشرين حيث تلعب الطائرات المقاتلة - حتى التجريبية منها - دوراً حتمياً حين تكون في موقف يسمح لها بالكشف والتعرف على مواقع العدو المنافس المتقدمة، ثم في إطلاق أول صاروخ له القدرة (النارية) على القتل والتدمير، وذلك دون التعرض للقتل، وإذا عدنا في الذاكرة إلى الوراء، نجد أنّ ذلك هو نفسه ما حدث على وجه التحديد كما جرى اليهود والفتى الراعي "ديفيد" على نحو 3000 سنة مضت، وعندما تمكن من الحصول على وثيقة كافية في مواجهة العملاق "جالوت" المحارب القديم والذي قام بقتله بواسطة مقلاع بحصاة.

وقد تكون القوة النارية المتميزة بالتركيز إذا لزم الأمر ستكون ذات نتائج حاسمة "دون استثناء"؛ وذلك بدلاً من "تقرير اقتصاد المعلومات"، أو العمليات "المستمرة"، أو "المركزة".

ولكن قد يخلق تفوق المناورة على الأرض وضعاً فاصلاً بحيث يجبر أحد أطراف النزاع على أن الاعتراف بقبول إجرّاءات إنهاء القتال، وهذا ما يعرف تنظيمياً بالحرمان الذي سوف يجنب استمرار الصراع وهو إكراه في شكل الردع.

وبالإضافة إلى ذلك، فمن الممكن أن يكون للرصاص أثر أكبر من أثر الإستراتيجية، وعلى الجبهات واسعة النطاق، ولكنها في بعض الأحيان يمكن أن تكون غير مجدية، حيث يتم اللجوء في حالات كهذه إلى القصف المدفعي التمهيدي، وذلك ما حدث في الفترة الأولى من الحرب العالمية الأولى حيث لوحظ أيضاً أن المناورة وقوة النيران ستؤدي إلى تكامل فاعل في الميدان، وأنّه تبعاً للظروف، وقوة النيران، يمكن يستخدم من جديد لتسهيل الحركة.

تعتبر القدرة على المناورة بالقوات ميزة بارزة من مهارات القائد الإستراتيجي، بل ينظر إليها كميزة أساسية في فن الحرب. وكما هو الحال مع تعريف الإستراتيجية، فإنّه أمر أكثر من مفيد إيجاد تعريف للمناورة بحيث لا ترفع علم الدلالة فقط.

obeikandl.com

ينظر إلى المناورة كمفهوم وعلى أنها التقدير الأفضل عندما يتعلق الأمر بمجرد فكرة الالتحام، أو في وضع خطة للحصول على شيء ما أو شخص ما، سواء كان في الجيش، أو على قسم من الجنود، أو على رحلة جوية، أو على الطائرات، أو سرب من السفن الحربية، أو انتحار منفّذ العملية في أفضل وضع، وذلك في الوقت الذي تسمح به الظروف.

وفي هذه العملية، فإنّه لابد من أخذ أعلى درجات الحيطة في عدم التعرض للقتل من قبل العدو، ومنعه من استخدامه للتكنولوجيا العسكرية قدر الإمكان، بل وينبغي تقليل فعالية قوة النيران إلى أقصى حد.

في بداية الأمر، لابد من القيام بالمناورة الأولى باستخدام النيران من ثلاث جهات، ويعود ذلك بالنظر لحجم وتنوع هذه المناورات تقريباً، وبلا حدود، بحيث تتمكن المجموعات المشاركة من البدء بالمناورات على نحو مفيد لإنشاء طبيعتها وأهميتها، بالإضافة إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الخصائص الرئيسية للمناورة المتبعة في مختلف العصور والتأكيد هنا على مفهوم "السرعة" التي لا بد منها، والتي يجب أن تكون خاطفة ويجب أن تكون لفترة قصيرة.

تعتبر السرعة أمراً بالغ الأهمية في الحسم بحكم التعريف النسبي لها، وفي كيفية النظر إليها كعنصر من العناصر المكونة لهذه المناورات والذي يتمتع بأهميته الخاصة التي من الصعب تجاهلها أو المبالغة فيها، ولذلك، فإنّ القائد الإستراتيجي الأبرز، هو القائد الأسرع في اتخاذ القرارات والتحرك من خلال نشر القوات، والتقدم، أو تراجعها من أجل تطبيق تكتيك التطويق، وهذا ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى قطف ثمار الإستراتيجية السريعة بالدرجة الأولى.

وهكذا، فإن مقاييس نجاح استخدام إستراتيجية السرعة في المناورات قد تختلف حسب عدة أمور تتعلق بالقدرة والأرض والظروف المحيطة، ولذلك قد تختلف النتائج، فالذي ينجح هنا، قد يفشل في مكان آخر، وهذا ما حصل مع القائد العام للجيش "جاكسون" في مسيرة "شينان دواه" خلال حملة "غور" في عام 1862، والذي قد لا يكون سريعاً من حيث الأرقام المطلقة، ولكنه من الناحية النسبية، فقد ترك

الاتحاد يتخبط بالمعارضين، حيث كان النجاح باهراً من حيث البراعة والسرعة ومهارة قراءة الأرض من أجل تعويض جيشه من حيث الأقلية العددية، وقد قام "جاكسون" خلال خمسة أسابيع قد سار بنفسه نحو 560 كيلومتراً مقسمة على مراحل، حتى في الوقت الذي وقف فيه على مناسبات لمحاربة المعارك والمناوشات.

تعتبر الطائرات المقاتلة الحديثة، بأنّها تمثل الطرف الآخر من السرعة الواسعة النتائج، وهذا ما تم استخدامه أثناء التعامل مع قوات "صدام حسين" حين قام بغزو الكويت في شهر آب / أغسطس من عام 1990، الأمر الذي أثار في حينه من مخاوف أنّ جيشه قد يستمر بالتقدم نحو المملكة العربية السعودية للاستيلاء على حقول النفط، وقد كان عدم وجود طائرات كافية هو ما تفتقر إليه القوى في المنطقة، وهذا ما جعل الرئيس الأميركي "جورج بوش" كي يأمر القوى الجوية على جناح السرعة بالتصرف حيث أقلعت أربعة وعشرون طائرة مقاتلة من طراز إف 15 والتي حلّقت انطلاقاً من مطارات الولايات المتحدة باتجاه الشرق الأوسط، عابرة للقارات، وقد كانت تلك الأسراب تحلق بسرعة تبلغ حوالي 800 كيلومتراً في الساعة، ولمدة عشر ساعات قاطعة أكثر من 12000 كيلومتر في عبور بلا توقف، ولتصل بكامل أسلحتها إلى ميدان المعارك.

وهكذا، فسواء كانت هذه المناورة السريعة، الناتجة عن قرار سريع وحاسم مستخدمين السرعة قوات صدام حسين الغازية للكويت من التقدم نحو الحدود السعودية، فقد كان مغزى ذلك إن كانت النوايا معروفة أو غير معروفة هو نقل رسالة لا لبس فيها من الولايات المتحدة، على الرغم من أنّ الجيش العراقي لم يتوقف في الواقع. الأمر الذي جعل خمسة عشر قائداً ميدانياً أمريكياً يعقدون اجتماعاتهم مستخدمين السرعة التي كانت هي السمة التي تحدد قوة المناورة.

وبالانتقال إلى أمثلة ذات نطاق أوسع، وبالبحث عن عدد قليل من أفضل القادة، فإنّه يمكن العثور على أكثر التجارب العسكرية قوة والمتمثلة بقدرة "الإسكندر الأكبر" المهولة، والذي قاد قبل نحو 2300 سنة مناورات رائعة حيث حققت النتائج المرجوة منها ونالت أقصى درجات التقدير على الصعيدين الإستراتيجي والتكتيكي

كانت إستراتيجيات "الإسكندر" الكبرى تتمحور حول قوة القوات المشاركة، ولذلك فقد سعى للتوجه نحو شرق البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الصغرى وجنوب آسيا بين عامي 334 و323 قبل الميلاد، وكانت تعرف بصلابتها وتصميمها، في جملة أمور، وعلى الأخص فيما يتعلق بجانب الإبداع، وبالطريقة التي كانت تنتشر فيه القوات الرئيسية للجيش.

ومن الأمثلة واسعة النطاق أيضاً، ما قام به "المقدوني (ماسي دو نيان)" الملك العظيم الذي لم يكن عظيماً في ساحة المعركة فقط، بل كان ذلك القائد المحارب الرائع والمفكر العسكري الذي يتمتع بموهبة نادرة الحيوية، والتي لم تكن دائماً واضحة أمام معارضيه.

كانت قواته تميل للظهور بشكل غير متوقع من حيث الزمان والمكان، ونتيجة لذلك، فقد كان يفرض شروطه إلى حد كبير مع القدرة على إملاء وضع الأحداث السياسية والعسكرية. وبعبارة أخرى، فقد كان مهيَّأً ليس لاستغلال الناحية المادية فقط، ولكن أيضاً كحليف.

كانت إستراتيجيات "الكسندر" تنجح دائماً، ذلك لأنه كان يستخدم أسلوب المناورات الإستراتيجية الكبرى، لأنه كان يستند إلى فهمه لمختلف عقليات خصومه، ولدرايته بمواطن القوة والضعف لدى كل أنواع القوات، وقدرته النادرة على قراءة التضاريس، في حين تميز القائد الإستراتيجي "باسيل هارت" باستخدام المنهج المباشر.

وثمّة مثال متناقض آخر ولكن هذه المرة من العصر النووي الذي يعزّز أهمية الحل غير المباشر، في إطار وضع مختلف جذرياً. ففي شهر حزيران / يونيو، ولذلك 1948 كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية يستغل الترتيبات التي تحالفت في زمن الحرب، حيث قامت قواته باحتلال ألمانيا عن طريق إغلاق جميع الأسوار ووصلت إلى مدينة برلين، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تنقسم إلى أربعة قطاعات تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا والأميركيون، والروس أنفسهم. ولكن إذا تركت دون منازع، ولذلك فإنّ ما قام به الشيوعيون قد لا يكون بمثابة الانتصار المنطقي

من الناحية النفسية مهما حصل، وذلك حين قدمت القوى المسيطرة الأخرى دائماً السيطرة على كل من برلين.

كانت القوى المهيمنة آنذاك تشعر بالقلق من أن أي محاولة لفرض الحصار على الأرض قد تؤدي إلى حدوث الحرب العالمية الثالثة، ولذلك، قام الحلفاء ببناء جسر جوي إلى برلين لمدة خمسة عشر شهراً لإنقاذ 2،2 مليوناً من سكان برلين الغربية، وكانت تطال القطاعات التي تعرضت للقصف وبقوة حيث طار أكثر من (2.33) مليون طن من الإمدادات وقد بلغ عدد الرحلات الجوية أكثر من (277 569) رحلة.

وقد أدى ذلك بالاتحاد السوفييتي في نهاية المطاف إلى رفع الحصار على السطح حيث تغير مجرى الحرب الباردة ومواجهة أوروبا، من دون إطلاق النار من جديد.

ثمّة مثال صارخ آخر ولكن على أسلوب اتباع الحل المباشر هذه المرة، حيث كان الجسر الجوي إلى برلين نفسه يقوم على نفس القدر من ضرب التطبيق المباشر للمناورات الموازية له، الأمر الذي كان يهدّد تطبيق القوة الإستراتيجية ضد الاتحاد السوفياتي.

في شهر تموز / يوليو 1948 قامت الولايات المتحدة بنشر قاذفات قادرة على حمل رؤوس نووية من طراز / بي 29 / إلى المملكة المتحدة، وذلك كحركة محسوبة من أجل استخدامها في حال أُريد التطبيق السريع للمناورات التي لا يمكن إغفالها في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

ولكن على الرغم من أنّ القاذفات الإستراتيجية /بي 29/ لم تكن في واقع الأمر مسلحة بأسلحة نووية، ولكن الروس لم يكونوا على علم بذلك، كما لم يكن لديهم أيّة نوايا في استعار أيّة حرب نووية أو لتنفيذ القدرة القتالية الخاصة بهم، لكنهم أصبحوا أكثر حذراً في التعامل مع المواجهة العاجلة في برلين. وفي نهاية المطاف، فإنّ السرعة والقهر عن طريق المناورات قد ردع الاتحاد السوفياتي.

وبالعودة إلى حملات الكسندر، فإنّ سرعة مناورة تلك الحملات كانت بمثابة أولى الحالات المسجلة للنهج غير المباشرة على المستوى التكتيكي، ولكن هذه المرة كانت تنطوي على سلسلة من صفوف الجنود المنسقة. ولكن، وعلى الرغم من

مكافحة القوات الفارسية المتفوقة عددياً في نهر "كريمة" في عام 334 قبل الميلاد، إلاّ أنّه كان يبدو أنّ قوات الكسندر قد استطاعت أن تضافر جهودها وتنفّذ خدعة لهجوم صاعق من قبل سلاح الفرسان الذي تتبع قوات المشاة واشتبكت معها ومع قادتها، وقد جاءت سرعة تفوق سلاح الفرسان إلى جلاء الخلط بين ما كان شبه مؤكد، لأنّ سرعة انطلاقة الفرسان كان أمراً غير متوقع لهذا النهج من أجل تعزيز أجزاء من الجبهة على حساب الآخرين، مما سبب الضعف، حيث لا شيء كان موجوداً في السابق. وهكذا، فقد أصبحت الفرصة سانحة آنذاك حيث جهز قواته مانعاً استغلال الفرس لأدنى فرصة ومخترقاً الثغرات الدفاعية، وحيثما وضع له العدو السيف.

كانت تكتيكات "الإسكندر" تعتمد على التوقيت الدقيق، وأهم ما فيه على العلاقات السياسية بين الفرسان وكتائب جنود المشاة، فقد كان لابدّ لسلاح الفرسان من وقت كاف لاستدراج كتائب الفرس نحو الفخ، وحثّهم على الاندفاع غير المتوقع لقواتهم نحو الهلاك، ولكن، كان هناك تخوّف من أنّ الكتائب قد لا تصل في الوقت المناسب لاستغلال الفجوات التي يخلفها سلاح الفرسان بين صفوف القوات الفارسية، على الرغم من أنّ كتائب الفرس كانت تحاول بشتّى السّبل لمنع الفرسان الذين كانوا يفوقونهم عدداً.

كان "نابليون بونابرت" أيضاً يتمتع بعبقرية تكتيكيّة تتّسم بإدارة التوقيت المناسب والسرعة الحاسمة وهو يسعى للتغلب على البطء الفطري الهائل بعد أن تولى قيادة الجيوش الفرنسية في مطلع القرن الثامن عشر. كان نابليون من بين الخبراء الإستراتيجيين الأوائل الذين مارسوا التكنولوجيات المتاحة في ذلك الوقت، حيث تم حشد الجيوش للحرب المحتملة وللانتصار الهدف، وقد كان ذلك مقدمة للثورة في فرنسا في عام 1793 والتي تكونت من قاعدة وطنية عريضة لنظام التجنيد، أو ما كان يسمى (السدود الجماعية) التي وفرت له السلطة اللازمة لزيادة عدد كبير من المقاتلين الذين يمكن تعبئتهم؛ بعد أن أصبح التحدي واضحاً، ثمّ الحاجة إلى المناورة الحاسمة حيث تم تعزيز كتلة الرجال والعتاد، في عصر شبكات النقل البدائية.

كان "نابليون" يجد الحلول لشتى أنواع المشاكل التي تصادفه وجيشه في ميادين القتال، وذلك من خلال مزيج مبتكر من التنظيم، والمناورات، والتوقيت، والتركيز. كما أنّ اتباعه لسياسة تقسيم الجيوش قد جعله القائد الرئيس دون منازع، الأمر الذي جعله يضع تلك الجيوش وفق منظومة هيئة مستقلة نسبياً، خصوصاً وأنّه لم يكن ليبخل عليهم بشيء، وهذا ما جعل تلك الجيوش تمتلك القدرة على التحرك بشكل مستقل، وبالتالي، أسرع ولكنها لا تزال تنتظم وفقاً لخطة الحملة الشاملة.

تحوّل بعد ذلك نابليون إلى مهمة أكبر وهي التقريب بين مختلف الفيالق معاً في الوقت الحرج، ولذلك فقد كان يستطيع أن يوجه القوة الضاربة لكي تتركز حول مركز القوة لدى العدو وفي مكان واحد.

قد يكون استخدام هذا المفهوم البسيط مثيراً للإعجاب، ولكن ساحات المعارك التي تختلف بين بعضها البعض وفقاً للظروف والإمكانيات والتضاريس، وأمور أخرى، فإنّ ثمّة تكتيك بارع سيكون أمراً مطلوباً للقيادة وكذلك للسيطرة في التنفيذ.

يكفي القول أن التوقيت المناسب والخداع يعتبر من الأمور الأساسية لهذه المناورات وفي أي مستوى من القتال. فالتحالف لغزو أوروبا في 6 حزيران / يونيو من عام 1944، على سبيل المثال، يوضح أنّه من كان من البديهيات في الطرف المقابل، لما كان يفعله الإسكندر الذي كان يطبقه ببساطة نسبياً.

في الفترة التي سبقت قيام قوات التحالف بالإنزال الجوي والهجوم البرمائي الهائل على سواحل "النورماندي" فقد اضطرت قوات الحلفاء لإجراء حملة الخداع متطورة لضمان نجاح المخطط وللحصول على موطئ قدم. وهكذا، فعلى النحو الواجب للخداع، كان الألمان يتوقعون أمراً مفاجئاً ما، فقاموا بنشر عشرات الآلاف من الجنود والأسلحة، ومراكز دعم بعيدة جداً عن شواطئ الهبوط الفعلي ذلك لأن أي استخدام فوري سيؤثر على الخطط الرئيسية للحلفاء، ولكن يوم النصر جاء أخيراً لمصلحة الحلفاء، ولو أنه كان قد وصل متأخراً.

كانت العمليات الجوية المكافحة القادمة تعتبر مثالاً عملياً في المناورات، والتي قد يكون من المستغرب أنها كانت أقل تعقيداً تكتيكياً مما كان الإسكندر يقوم به، على الرغم من أن تلك التكتيكات كانت قد ظهرت منذ أكثر من 2200 سنة.

منذ أن وُضعت القوى الجوية ضمن النظام القتالي الفعال لأول مرة في الحرب العالمية الأولى،فقد كان لزاماً على الطيارين الاستفادة من كل ما قد يحدث مفاجأة لخصومهم إن كان في الجو أو على الأرض، ولذلك فقد تمكن أولئك الطيارون من استخدام طائراتهم بدهاء حيث كانوا يطيرون واضعين الشمس خلفهم للتمويه وإعماء العدو وقد كانت تلك الميزة من أشهر وأقوى الميزات التكتيكية الإستراتيجية لسلاح الجو.

وهكذا، فحتى مع تقدم التكنولوجيا في المجال الحربي في السنوات الأخيرة، فقد تم تزويد سلاح الصواريخ بعيدة المدى، بوسائل حديثة للتشويش على الرادارات الكاشفة وغيرها من نظم المعلومات التي تكافح الاختراقات الجوية ولذلك، فقد استعرت حرب معلومات من نوع جديد ومؤثر، وسيؤدي ذلك إلى ثورة متجددة عن طريق توفير معلومات أفضل وبشكل عاجل، مما سيسهل تنفيذ العمليات بشكل أسرع، بل وأبعد من المدى البصري، ولكن، قد يجد الطيارون أنفسهم في بعض الحالات مضطرين للاشتباك مع طائرات العدو أو قوات دفاعه الجوية من مسافة قريبة. وفي هذه البيئة المتغيرة، لابد من سرعة معرفة طبيعة القتال وتحديد مكان العدو، وهنا، يجب التصرف بسرعة، ولابد من أن الارتفاع النسبي لأشعة الشمس يمكن أن تشكل الفارق بين الحياة والموت.

وبالتوازي، فإنه من الملاحظ على الأرض، اتباع القادة الميدانيين لخطط تمويه شبيهة بخدعة الطيارين باستخدامهم لأشعة الشمس، وقد كان هؤلاء القادة يتصرفون بدهاء حيث كانوا يبحثون عن نقاط تمركز تكون مرتفعة ما أمكن عن سطح الأرض بحيث يستطيعون أن يطلوا على التضاريس من فوق. وفي الواقع، فإن هذا المبدأ الذي تم استخدامه - على نطاق واسع - في معظم الحروب، فقد أصبح

المصطلح اللغوي المجازي "أخذ الأرض" مجازاً داخل اللغة الإنجليزية للحصول على ميزة في أي نوع من الجهد.

كان القائد" فون مولتك" بائس التجربة في تنفيذ الخطة المرسومة في الحرب العالمية الأولى، ولذلك فإنها توضح السمات الهامة الأخرى لهذه المناورات. وهذا بالمثل ما يحدث للموظفين العسكريين، والعمل على إستراتيجية أن لا ينجو من هذه الخطة في أول مواجهة مع العدو.

ولكن، ففي الوقت الذي يبالغ فيه في هذه القضية، والمتمثلة - باحتمال أنه سيتعين على القادة في الميدان تعديل الخطط على النحو الذي تتكيف فيه مع الظروف المتغيرة لا يعني بالضرورة أن الفرضيات الأساسية ليست صحيحة - وهذا، ما يلقي الضوء هنا على أهمية التخطيط للحالات الطارئة وتطبيق المرونة في ذلك.

وكما تم وصفها في الفصل الثاني، فإن "فون مولتك" قد وقع في فخ تلك المناورات بشكل فعال بحيث أصبح هدفاً في حد ذاته، وكانت له عواقب وخيمة.

تجسدت مشاكل "مولتك" في الكثير من الحملات خلال الفترة المبكرة من الحرب العالمية الأولى. أما بيت القصيد من هذه المناورات، فقد كان في الحصول على مواقع متميزة، والتي يمكن استخدامها بعد ذلك لاستخدام القوة الحاسمة إذا لزم الأمر.

ولذلك، فإن مصدر القوة في حالة كهذه ليس مهما - حيث يمكن أن تتقدم المشاة وتقصف والمدفعية وتشترك نيران البحرية، والطائرات الهجومية أو أي سلاح آخر، لأن ما يهم هنا هو أن تكون الضربة حاسمة.

وهكذا، فإن معظم جنرالات الحرب العالمية الأولى، كانوا يبذلون قصارى جهودهم لإيجاد التوازن الصحيح بين المناورة وقوة النيران. وكذلك الطرق اللوجستية ذلك لأن وسائل النقل المتاحة والطرق والسكك الحديدية والسفن ليست وسائل مرنة بما فيه الكفاية، ولا سريعة بما يكفي لتسهيل المناورات السريعة للقوات، ولا تكون كافية للاستيلاء على المواقع ميزة حاسمة قبل التطويق، أو الاختراق، أو المواقع المحيطة بالعدو.

وعلى النقيض من ذلك، فإن التكنولوجيا التي تقدمت وسائل تطورها واستخداماتها

مع الزمن، قد جاءت بنتائج مذهلة، وعلى الأخص التكنولوجيا المطبقة على الأسلحة والمتوسطة والثقيلة مثل المدفعية والرشاشات، حيث كان لها دور هام في القضاء على الحشود المقابلة والتي غالباً لم تستطع الوصول إلى أهدافها لكونها أصبحت التي تتقدم بخطى بطيئة.

مما لا شك فيه أن قوات العدو - وأمام ضخامة النتائج - ستصاب بفزع شديد وهذا ليس بالأمر المفاجئ، وهكذا، فقد أصبحت ميادين قتال الحرب العالمية الأولى كثيرة المستنقعات حيث علق عشرات الآلاف من القوات المسلحة في معارك وحشية لأكثر من شهر بعد أن غاصوا بحقول الطين لمئات الأمتار.

في ظل هذه الظروف، والعوامل الجوية المتقلبة، وبرك الوحل الكبيرة التي تعيق التقدم بشكل لافت، كان لابد لجنرالات الحرب البدء في استخدام القوة النارية كعنصر فرعي للمناورات، وليس شريكاً فيها.

ومرة أخرى، ينبغي أن لا نصاب بالدهشة إذا علمنا أن ستين في المئة من الخسائر البشرية خلال الحرب العالمية الأولى كانت من خلال قصف المدفعية، وهو رقم يكشف عن عدم التوازن بين المناورة وقوة النيران إلا في وقت متأخر من الحرب حيث استطاعت استعادة شيء من التوازن، وعندها بدأ القادة بالتفكير بحلول مبتكرة لاستغلال التكنولوجيات الناشئة من أجل الانعتاق من العقلية المهيمنة على حالها.

وعلى سبيل المثال، فإن هذا بالضبط ما جرى في مدينة "هامل" في شهر تموز / يوليو في عام 1918 حين قام القائد الإستراتيجي الأسترالي "جون مانيش" باستخدام فرق الجوالة التي قامت بالتنسيق بين سلاح قوات المشاة وسلاح المدفعية والمدرعات والطائرات، ومن ثم عُززت تلك القوى معاً من أجل تحقيق شكل من أشكال المناورات، الأمر الذي أدى بدوره في النهاية إلى نصر حاسم.

في الجولة النهائية للحرب، وبعد مئة يوم على شدة اندلاعها في بعض الجبهات، كانت هي الفترة التي اتسمت بالهدوء النسبي لفترة وجيزة قبل أن يصيب الانهيار المفاجئ المقاومة الألمانية الغربية على كل الجبهات حتى الداخلية منها، في حين كان الحلفاء الآخرين كالولايات المتحدة - التي بدأت تظهر بشكل نادر على الأقل

- منبهرين إلى درجة الخيال في استخدام منظومات التكنولوجيات العديدة.

وهكذا، فمن بين الأمور الأخرى، التي جرت على نحو أفضل، كانت الأهداف الناجمة عن دقة التحليل، بالإضافة إلى المزيد من البنادق والمدفعية الزاحفة على الأرض، وكانت النتيجة من اختلاط كل تلك الأسلحة والعتاد، وانفجارات شديدة وجنونية، وقذائف تتساقط كالمطر، وسحب الدخان التي استخدمت بكثافة شديدة لإخفاء كل من تيسير من قوات وأجهزة وآليات، وكذلك للتمويه على تقدم المشاة، وتحسين نيران المدفعية المضادة للمدفعية، والاستخدام الماهر للقصف بقذائف الهاون وبأفضل الدبابات، والكثير من استخدام الطائرات لاعتراض التحركات المعادية، وقد ساعدت كل هذه المناورات لجنود القوات الحليفة في أن تكون أكثر فعالية بكثير مما كان الحال في السابق.

كان التطبيق المبتكر للمناورات النارية أيضاً هو مفتاح النصر، وهو ما كان يميز تاريخ بريطانيا العسكري وربما الأكثر شهرة، وعلى وجه الخصوص، فقد كان لمشاركة الأميرال البحار اللورد "هوراشيو نيلسون" الفضل الكبير للانتصار المشترك الموحد بالإضافة إلى السفن الحربية الفرنسية والإسبانية في المعارك البحرية والبرية التي خاضها الأسطول المشترك في عام 1805. ولكن، ففي حين كان القائد الإستراتيجي "مانيش" على سبيل المثال، يستخدم كل من التكنولوجيا والأفكار للخروج من نظريات التفكير السائدة، فقد كان " نيلسون" يعتمد فقط على البراعة التكتيكية لأسطول نظيره البريطاني في المناورات وذلك من أجل كسب الميزات.

كان قادة البحرية قبل ذلك، يُظهرون ميلاً شديداً لتطوير الأساليب التي قد تسمح لهم بالقضاء على العدو فقد كانت خطة تحرك الأساطيل شائعة آنذاك حين كانت تُبحر في السفن نحو المعارك وفق خطين لمواجهة السفن المعترضة للأسطول المعادي، وكان على كل قبطان سفينة أن يسعى بدوره للوصول إلى جانب من جوانب السفينة المعادية للاستيلاء عليها. ولكن في كثير من الأحيان، كان لابد من تخفيض نسبة مشاركة السفن أو إبحارها - كما هو مألوف - في خطين متوازيين من أجل الفوز باقتناص السفن المعادية - ذلك لأن الطقس كان غير موال للتنبؤات وفي أحيان

كثيرة كان المناخ يخدع البحارة لأن السفن تكون تحت رحمة الرياح أثناء المناورة. بيد أن القائد الإستراتيجي والقبطان المحنك" نيلسون" استطاع في المعركة البحرية "ترافالاغار"[25] من كسر هذا النمط المعتاد وذلك بتقسيم أسطوله إلى مجموعتين منفصلتين:

- حيث تهاجم المجموعة الأولى من السفن أبواب خطوط العدو، وبالتالي تحطيمها.
- بينما تقوم المجموعة الثانية بالاصطفاف عرضاً بشكل تقليدي والبدء بالاشتباك، وبدلاً من قطع طريق السفن الفرنسية والإسبانية بشكل عمود الزاوية القائمة، فإن المفاجأة غير المتوقعة ستصيب السفن المعادية حيث تكون قد تشتتت مناورات العدو الذي خرت قواه، فيلوذ بالهرب.

وهكذا، احتل "نيلسون" صدارة الانتصارات البحرية لمئة عام لاحقة من سيطرة البحرية الملكية البريطانية، وقد كان تكتيك العدو عبور الأسطول بزاوية قائمة قد بلغ ذروته في "تسوشيما" الضبط، وذلك في وقت لاحق من هذا القرن، وهو الوقت الذي تمت فيه الاستعاضة عن السفن الخشبية فيه بالسفن المعدنية الحديثة المصنوعة من الحديد والصلب والتي تعمل على البخار وعلى طاقات أخرى. وقد وصفها الخبير الإستراتيجي "جوليان كوربيت" باعتبارها أكثر الوسائل المؤدية للنصر البحري الكامل في التاريخ، وهذا ما حدث أثناء الهزيمة الساحقة التي لحقت بالأسطول الياباني أثناء اشتباكه مع الأسطول الروسي في شهر أيار / مايو من عام 1905 والذي استطاع أن يحقق نصراً خارقاً بواسطة مناوراته البحرية الناجحة، والذي لم يكن ممكناً لولا السرعة الفائقة للأسطول الحديث.

وهكذا كان، فبدلاً من أن يُبحر "مانيش" من خلال خط العدو، كما فعل "نيلسون" فإن الهدف الآن هو المرور والتقدم إما نحو الأمام أو المناورة نحو الخلف، ذلك من خلال عمليات التكتيك، وقد استخدم في مناوراته الهجومية اصطفاف السفن على شكل "T" من خلال تشكيل أفقي تاركاً للمقدمة العريضة أن تكون

25- ترافالاغار أو معركة "الطرف الأغر" سميت بهذا الاسم نسبة إلى الانتصار الإنجليزي الكبير في معركة الطرف الأغر البحرية والتي دَمّر فيها الأسطول البريطاني أسطولي فرنسا وإسبانيا عام 1805.

صاحبة السبق في الاشتباك مع السفن المصطفة رأسياً، وقد استفاد من ذلك كثيراً بحيث استطاعت سفنه من النيل السفن الحربية المساندة وسفن المؤن المصطفة إلى جانب السفن الحربية للعدو.

وهكذا، تمكنت السفن المهاجمة من جمع كل من تحمل من مدافع ثقيلة في وقت واحد؛ وعلى النقيض من ذلك، فقد وقف الخصم بلا قدرة على الرد على تلك الأسلحة، حيث اشتعلت الحرائق من كل الجوانب، وحتى نهاية الخط البحري الذي تم تجاوزه، وقد أثبتت المدفعية على الدوام بأنها العمود الأساس في تحقيق النصر في المعارك البحرية.

بحلول الوقت الذي وصل فيه الأسطول الروسي إلى "تسوشيما" بعد فترة طويلة من عبور بحر البلطيق، حيث لم يكن باستطاعتها الإبحار سوى بسرعة لم تتجاوز 15 كم في الساعة، وذلك بسبب السفن الحربية المقصوفة والمدمرة من قبل السفن المعادية والتي لم تزل عائمة.

كان الأسطول الياباني، في المقابل، قد تمكّن من إنجاز المناورات بشكل أكثف وبسرعة تجاوزت 30 كم في الساعة، وكانت بقيادة الأميرال البحري "هيشاريو توغو" المتميز بخبراته التكتيكية الهائلة حيث استطاع أن يستغل بطء حركة السفن الروسية القادمة ويناور بسرعة من أجل العبور قبلها، وقد أفلح بالعبور ليس مرة واحدة بل مرتين.

كان "توغو" قد صقل تكتيكاً غير متوقع من قبل العدو، وذلك من أجل الوصول إلى الفوج الثاني من السفن المبحرة من جانب واحد، الأمر الذي منع الروس من الهرب منه، وقد تعرضوا لإطلاق نار كثيف مترافق مع قصف مدفعي مهلك.

وفي غضون يومين فقط من القصف المستمر، كانت سفن وقوات الأميرال "توغو" قد استولت على واحد وعشرين سفينة من أصل خمسة وعشرين من السفن الروسية التي بدأت تتهاوى من تلقاء نفسها.

لقد لعب تطور المدافع البعيدة المدى، وحاملات الطائرات، وفي نهاية الأمر الصواريخ بعيدة المدى، في تحويل وتغيير أساليب القتال البحرية، حيث لم تعد الأهداف البعيدة

التي لاُترى تشكل أية تعقيدات، بل يكاد التعامل معها يصبح تدريجياً هو القاعدة.
وهكذا، فقد أجري آخر اشتباك بحري اعتمد على الرؤية الطبيعية في إطار مجموعة تكتيكية، وكان ذلك للمرة الأخيرة في منطقة خليج "ليتي" في "الفلبين" في شهر تشرين الأول / أكتوبر 1944 وذلك عندما خيضت أكبر معركة بحرية في التاريخ الحديث، والتي دارت رحاها بين الأساطيل الأميركية واليابانية.
لقد كانت معارك لن تنساها البشرية، كما أنها كانت دروساً هامة في استخدام التكتيكات البحرية الحربية وخدع المناورات المفاجئة والقاضية.
كان القادة اليابانيون يحاولون الدخول إلى الخليج عبر مضيق "سوريجاو" الضيق، بحيث تستطيع سفنهم أن تصبح في مواقع منفتحة على المناورات البحرية التقليدية، ولكنها سرعان ما دفعت ثمناً باهظاً جرّاء ذلك حيث تعرضت السفن اليابانية لقصف هائل ولوابل كثيف من النيران بحيث غرقت بارجتين مدمرتين عملاقتين من أصل ثلاث مدمرات، والكثير من البوارج الحربية التي سرعان ما غرقت أو خرجت من الخدمة، في حين لحق ضرر بالغ بطرّاد ثقيل واحد، وبمدمرّة واحدة، وأصيبت سفينة أمريكية واحدة فقط.
أما المناورة الأخرى، فيمكن أن تكون في عين الناظر، وذلك كما يكشف التوضيح النهائي. فقد كان الخبير العسكري البحري "أوليسيس غرانت" يعتقد بمبدأ "اللا مناورات" لكن الشواهد المقتضبة التي ذكرت هذا الفصل قد منحت فرصة جيدة لتعديل تلك المعتقدات على الأقل، وهذا ما زاد من أهمية الموقف عندما كان قائداً لقوات الاتحاد في الحرب الأهلية الأمريكية، وكان قد شارك من قبل في العديد من الحروب، وكذلك أثناء تذبذب الصراع مع جيوش الولايات الأمريكية بقيادة الجنرال "روبرت لي". ولكن، على النقيض من ذلك، فقد استطاع الجنرال تحقيق سلسلة من نجاحات غير متوقعة ضد الاتحاد - وإلى حد كبير - وذلك من خلال مهاراته في مناورة قواته المتميزة وجيدة التدريب.
ولمدة ثلاث سنوات بعد بدء الحرب الأهلية الأمريكية في شهر نيسان / أبريل 1861، كان الجنرال "لي" قد فكّر مرتين في خلافة الاتحاد من خلال الجمع بين

القادة الذين يتقاطعون في وجود تفاهم مع الأهداف الإستراتيجية والذين كانوا بارعين في دقة التقدير وفي الجغرافيا واللوجستيات.

ونتيجة لذلك، فقد كان الجيش قد تحالف في معظمه معه، على الرغم من القصور الواضح في المؤن والعتاد، لكنه كان قد منح فترات من التريث وصلت إلى أكثر من سنتين ونصف، وقد كان الجيش دائماً أقل تموينا من حيث الأسلحة والملابس والغذاء.

في المقابل، كان القائد "ريج" آنذاك يتمتع بشعبية واسعة، وبموقع التفوق، لكن الظروف الراهنة في حينه قد أدت إلى سلسلة من الإخفاقات في ميدان المعركة.

كان الرئيس الأمريكي "أبراهام لنكولن" قد أصيب بإحباط شديد لتخوفه من عدم إمكانية تحقيق الاتحاد بين الولايات الأمريكية المتناحرة، وقد ازداد شعوره بالإحباط من جنرالاته لعجزهم عن تحقيق ذلك، على الرغم من تفوقهم في العدة والعتاد وعلى الأخص في القوة الحاسمة في الحرب التي على كانت على حافة الاندلاع.

ولكن، على الرغم من أن القائد المخضرم والسياسي البارع "غرانت" قد انتقد في تعليقه على نفس الموضوع، فإنه، وعندما تولى قيادة جيوش الاتحاد في شرق البلاد في وقت مبكر من عام 1864، فقد بدا - على الفور - من أنه يفوق الجنرال "لي" براعة، الذي كان يبدو في الواقع وكأنه في المكان غير المناسب.

وهكذا، فقد عاد الفضل الكبير "لغرانت" خلافاً لأسلافه، حيث كان غير متعاطف في تقدير طبيعة الحرب في منتصف القرن التاسع عشر، وكذلك العلاقة الإستراتيجية بين الاتحاد والكونفدرالية. ولذلك، فإن نظرية الوسط من الجاذبية، وتحليل المشاركات قد أدت إلى تسلسل نتائج حاسمة.

كان تحقيق التوازن بين المناورة وقوة النيران في تلك الحقبة يعتبر من النوع السابق القديم حيث كان من الصعب جداً السيطرة على زمام إدارته، وهذه الصعوبة يمكن أن تكون مدمرة. وفي هذه الظروف يكون الدمار على قاعدة القتال الجماعي هو القاعدة، مما يعني أن الخسائر البشرية من المرجح أن تكون ثقيلة،

ولذلك فقد كان لزاماً على "غرانت" من قبول الواقع القاتم.

وبسبب القوة الهائلة وتفوق القدرات المالية والمادية والبشرية للولايات الشمالية، فقد استطاع "غرانت" أن يسير بخطى صحيحة وعلى أفضل وجه من خلال استنفاذ الجنوب. ولطالما احتفظ بالمعركة الختامية مع العدو، تاركاً له الفرصة لإعادة تجميع قواه قليلاً، واستعادة قدراته تعزيزها، وكذلك التغلب على العقبات حيث كانت قدرة مقاومة الجنوب ستتقرر في النهاية في الميدان.

وعلى حد تعبير أحد المؤرخين، فقد كان "لنكولن" مستعداً للقيام بأي شيء من أجل تحقيق ما كان يحلم به، لذلك فقد كان يبحث عن هؤلاء المعلقين الذين انتقدوا نهج "غرانت" ولكنه غاب عن هذه النقطة وقال: إن تطبيق هذه المناورات قد تكون الدموية، ولكن في ظل هذه الظروف كان لابد من التحاصص.

في حين كان قد سعى باقتدار لإيجاد أفضل المواقع الجغرافية لبدء الاشتباك، ولكنها لم تكن بالضرورة على رأس أولوياته، وكما أنها لم تكن في غاية الأهمية بالنسبة له، كما كان الحال بالنسبة لقوات العدو التي تفوقه عدداً. لكن "غرانت" قد أفرط في ركوب الموجة كما في التقديرات حيث وصل إلى مرحلة كان فيها من الضروري مهاجمة العدو باستمرار وبلا هوادة، وبغض النظر عمن كان فيها، وهذا هو بالضبط ما فعله. على حد قوله، فن الحرب في عام 1864 بسيط للغاية: "اكتشف عدوك، ثم هاجمه بأسرع ما يمكن، واضربه بكل قوة وبأقصى ما يمكن، وثم واصل التحرك".

وقال أيضاً: قد لا يكون كل الجنود قد تهيؤوا بذات الخبرة والجودة التي يمتلكها من درس في المدرسة الحربية، إلا أنه مما لا شك فيه، أنهم تهيؤوا بفهم واضح للضرورات الإستراتيجية من أجل الهدف الأسمى، وهو كسب الحرب.

إعادة التعريف الجماعي:

يعتبر تفسير المناورات - الذي بلغته في جزء كبير منه - من قبل فهم واضح للعلاقة بين كمية السفن ونوعيتها التي سادت خلال الحرب الأهلية وهنا يمكن دراسة الحالة واستخلاص نتيجة واحدة، لأن ذلك يساعد على توضيح التحول العام في حجم

وطبيعة القتال في الحرب، ممثلاً في حشد القوات.

كان هناك فرق طفيف في مستوى القتال بين كل رجال الاتحاد والكونفدرالية، ولكن الشماليين - وبموجب خدمات الدعم - كانوا أكثر تفوقاً بكثير. أما النتائج الأسوأ بالنسبة للجنوب، فقد كانت العمليات اللوجستية تتفاقم بسبب وجود اختلال في التوازن العددي، إلا أن هناك حاجة إلى الاستفادة منها من خلال الإستراتيجية الصحيحة لتصبح حاسمة القدرة تقريباً.

كان القائد السوفييتي "جوزيف ستالين" ينظر بحرص في كل مرة وفي أوقات مختلفة، إلى ضرورة تحديد حجم القوى التي لديه، وكذلك حجم قوة كل نوع خاص به، ولكن بمجرد إصرار "غرانت" على عزمه رغم جميع التكاليف التي حاصرته من كل الجوانب، فقد كان في تصميمه يعتمد على مصدر إلهام الجنرال "لي" في المناورات السابقة التي كان قد نجح فيها، رغم قوة وقسوة الدمار المحتمل أن تسود؛ وقد كان ذلك.

ولكن بعد تلك الحقبة، فقد تغيرت طبيعة الدمار تدريجياً، ذلك لأن التكنولوجيا قد أخذت موقعها في تنفيذ العمليات، وخاصة من خلال تطوير أسلحة دقيقة وموجهة، ومن بينها الطوربيدات البحرية ذاتية الدفع، والتي ظهرت لأول مرة في منتصف القرن التاسع عشر، لتجسد فكرة استخدام التكنولوجيا حيث كانت تلك الطوربيدات صغيرة الحجم بما يكفي لكي يحملها قارب دورية السفن والغواصات، ولكنها في نفس الوقت، قوية بما يكفي لإغراق السفن الكبيرة، ونسفها، وقد كانت تعتبر تهديداً مباشراً في مرحلة من المراحل، الأمر الذي وضع حداً لمعارك السفن في العصر الحديث، بل وقبل أن تبدأ تقريباً.

ثمة تحديات أخرى لمفهوم الدمار كانت قد استمرت في الظهور طوال النصف الأول من القرن العشرين، ولكن لم يبدأ تأثيرها الكبير المدمر حتى حلول أواخر الستينيات 1960، ويعود ذلك إلى ثلاثة عوامل محفزة كانت ذات أهمية خاصة:

- **أولاً:** عندما بدأت المواجهات بوتيرة منخفضة بين قوات حلف "وارسو" وقوات حلف شمال الأطلسي بشتى أنحاء ألمانيا خلال الحرب الباردة، واتحاد الجمهوريات

الاشتراكية السوفيتية، كانت هناك ميزة مثيرة للقلق فيما يتعلق بالأعداد والأسلحة التقليدية (الكتلة) التي تقودها الولايات المتحدة وحلفائها، ولذلك تم طلب التعويض على التفوق من خلال تكنولوجيا متفوقة وبموجب معاهدات الصداقة والتعاون للحد من التشنجات اللاإرادية بين تلك الدول العظمى، مثل إحلال جو تسليم الأسلحة النووية التكتيكية للجيوش (الدقة في النوع).

- **ثانياً:** تصاعد وتيرة الحجج لصالح هذا النهج وعلى نطاق أوسع الأمر الذي عزَّز هزيمة الولايات المتحدة الهزيمة في حروب الهند الصينية، في فترة ما بعد الصراع، وأوضح التحليل العقلي فشل إستراتيجية وقوة الطلب. وكذلك المعوقات التي صادفت الجيش الأمريكي والمتطلبات البيئية، الأمر الذي أدى بالتالي إلى إعادة بدء القتال في الحرب على المذاهب القتالية، والتي بدأت للتأكيد بين دقة وسرعة الحركة، وبين دوام المعلومات، والتكنولوجيا المتقدمة، وكان من الأفضل اتخاذ القرارات على حساب الحجم.

وأخيراً، فإن الانتصارات المذهلة التي حققها كانت تتفوق بقوتها وجودتها، ولكن القوات الإسرائيلية في منطقة الشرق الأوسط في حربي 1967 و1973 قدمت دليلاً آخر على النموذج الجديد للحرب من الناحية العملية.

استمر هذا الاتجاه فيما بعد، وعلى الرغم من أن النتائج النهائية للمعارك اليومية كانت صغيرة لكنها كانت قوية فكرياً، وعلى الأخص فيما يتعلق بالتقدم من الناحية التكنولوجية، وسرعة الحركة بشكل روتيني لقوات الدفاع خارج التفكير بمجريات الحرب العامة، وقد تفوقت التكنولوجيا باستخدام البراعة الأكبر في الإمكانيات العقلية والجسدية رغم وجود الكثير من المعارضة.

وهكذا، ففي بداية القرن الحادي والعشرين، كانت أقوال "ستالين الفطرية المأثورة" بشأن حجم القوة قد فقدت سلطتها.

الدفاع وارتكاب الجريمة:

كانت عملية تبادل النيران والمناورات مترابطة فيما يتعلق بالسفن، وكذلك يفعل الترابط بين عبارتين أساسيتين من عبارات تطبيق القتل المتبادل وهما "الجريمة"

و"الدفاع" وذلك ما كان يعتقد به القائد الإستراتيجي "كلاوس" بصفة عامة، حيث كان يظن بأن الدفاع هو أقوى أشكال الحرب، وينطبق ذلك الحكم الذي يعتبر حكماً دقيقاً بما فيه الكفاية لنابليون والعصر الذي عاشه،وكذلك للجماهير التي راحت ضحية القتال في الحرب المدمرة التي دارت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك من خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، والحرب العراقية الإيرانية التي استمرت في الفترة الواقعة بين عامي (1980 إلى 1988).

يعتبر تاريخ هذه الصراعات مفعم بالكآبة ومفعم بالدمار وبالكثير من الهجمات التي باءت بالفشل، وكثيراً ما كانت - وبشكل مخيف - تتحول إلى قوة دفاعية قاتلة راسخة. ولكن غالباً ما كان ُيخطط لها مع الجنرالات شبه اللاهوتيين في العقيدة التي يفترض بأنها الفطرية وحتى أخلاقية، ولكن الجريمة كانت تتفوق حيث لم تستطع القوات - المشاركة والمدافعة - أولم تستغل المناورات بشكل كاف في، وكذلك الحملات التي كانت تعبر عن العقيدة، وكثيراً ما أدى ذلك إلى أفظع المذابح في الهجوم داخل صفوف المحاربين.

تأثّر تفكير "كلاوس" بحقيقة أن الأرض غالباً ما توفر ميزة دفاعية قوية، الأمر الذي ينعكس في المدى البعيد على قدرات الجيش، وبحكم التجربة، فإن القوة المهاجمة تحتاج عادة إلى ميزة عددية تقدر بثلاثة إلى واحد أكثر من معارضيها. وهذا هو حال المعالم الطبيعية مثل الأرض والأنهار والغابات والجبال، وغابات المانجو التي يمكن استخدامها من قبل المدافعين من أجل وضع توازن بديل مع مغادرة خصومهم بعدد قليل من الخيارات الهجومية، وربما ظلت الصفوف الأمامية فقط عرضة للاعتداء حسب المواقف الراسخة، والحالة التي تقيم التكاليف لشن هجوم الذي قد تبدو كفته راجحة على الفوائد المنتظر.

كانت هذه العلاقة التفاعلية بين الجرم والدفاع تعتبر في الماضي على أنها قد ولدت شكلاً مميزاً من أشكال الحرب، وهو الحصار.

وهكذا، ومنذ أمد بعيد، كان الحصار يقدم نموذجاً عن التوازن بين المناورة وقوة النيران، وكذلك عن كيفية وضع الإستراتيجية وتطبيقها، ولكن هذا الموضوع

يحتاج إلى مناقشة مفصلة.

كانت عمليات الحصار التي تقوم بها القوات في العادة، قوية بما فيه الكفاية لإجبار الخصم على التراجع إلى مواقعه الدفاعية وإلى داخل المعاقل المحصنة مثل المدن المسورة، والقلاع والأدغال والجبال والكهوف، ومن هناك تعيد الكرة في الدفاع عن أراضيها، وإعادة ترتيب صفوفها وخططها، وقد تصبح قوية لدرجة نجاحها في الهجوم دون المخاطرة أو خسارة أي معاقلها الدفاعية غير المقبولة، أو حتى الهزيمة.

ولكن في المقابل أيضاً، فقد تكون نتيجة الهجوم التي تشنها القوات المحاصرة للمهاجمين كنوع من العمليات الدفاعية الهجومية، حيث تكون المشاركة ناجمة عن الممارسة السابقة لهذه المبادرة الهجومية، ولكن تعتبر المغامرة في القيام بذلك فقط داخل حدود محددة وبدقة من أجل احتواء الخسائر المحتملة، إلا إذا كانت لدى القوات المهاجمة القدرة على تقيم قدرات المحاصرين المدافعين بشكل كاف لإطالة أمد حرمانهم من الموارد الرئيسية بقصد إضعافهم، مع استمرار القصف، كما أن المرض وما شابه يجب أن يكون عاملاً هاماً للمهاجمين من سبيل استئناف هجوم شامل.

وهكذا، ووفقاً لما ذكره الشاعر الملحمي اليوناني "هوميروس" فإن "إلياذة هوميروس"، وحصار "طروادة" في حوالي عام 1200 قبل الميلاد قد استمر لمدة عشر سنوات، لكنه لم ينجح في نهاية المطاف إلا عن طريق الخداع، حيث يبدو أن اليونانيين كانوا قد شارفوا على اليأس لعدم قدرتهم من اقتحام أسوار طروادة المنيعة العالية وجيدة التحصين، لكنهم في النهاية، استطاع بعض العباقرة العسكريين من اختراع طريقة تمكنهم دخول المدينة من أبوابها ودون مقاومة، وهكذا كان، فقد صنعوا حصاناً خشبياً ضخماً ووضعوه على عجلات، ثم ساروا خلفه نحو أبواب المدينة بعد أن وضعوا الجنود المدربين في جوف الحصان، وما إن أصبح الحصان داخل الأسوار، قام الجنود المتحصنين بداخل جسد الحصان في وقت لاحق من تلك الليلة، بالنزول منه وفتحوا أبواب المدينة للجيش اليوناني المرابط الذي

obeikandl.com

اقتحم المدينة خلسة تحت جنح الليل في بادئ الأمر.

قد تكون مصادر حروب طروادة غامضة في بعض جوانبها نوعاً ما، ولكن يبدو أن الحصار اليوناني للمدينة قد لا يكون دقيقاً على النحو، لأن هذا المفهوم يحتمل مضامين مختلفة، حيث قد يكون هناك متحالفين سريين مع اليونانيين، وقد يكمن سر صمود "طروادة" كل تلك الفترة في بعض الممرات السرية التي كانوا يستخدمونها، مما يسمح لمواطنيها تجنب المجاعة والمرض.

ولكن الأمر يختلف في العصر الحديث، فبعد ثلاثة آلاف سنة، وخلال فترة حصار دامت ستة أسابيع لمدينة "فيكسبيرغ" في منتصف عام 1863، لم يكن لا الجنود المحاصرين ولا المواطنين يتمتعون بمثل تلك الإغاثة، ولذلك لم يكن أمامها الكثير من الخيارات في نهاية المطاف سوى الاستسلام للجيش المحيط بالمدينة بإحكام بقيادة قائد الاتحاد العام الجنرال "أوليسيس. د".

لكن القائد "غرانت" بطبيعة الحال، كان قد استفادت من قدرات قواته على قصف مدينة "فيكسبيرغ" بنيران المدافع، وكذلك باستخدام شكل من أشكال التكنولوجيا التي لم تكن متاحة لليونانيين في حصار طروادة حيث لم يكن قد اختُرع البارود بعد أو حتى المدافع، ولذلك فإن إقامة حواجز دفاعية قوية غالباً ما يكون الخيار الأفضل للجيش في مواجهة خصم أقوى.

فبينما يحاول الجيش المقتحم امتصاص أزمة قوة تلك الحواجز فإنه بدون شك سيحاول التراجع مع فقدانه القدرة على المناورة وبذلك قد يصبح مكشوفاً للجنود المتحصنين، وقد يتحول من مهاجم إلى مدافع عن قواته لفقدانه القدرة على المتابعة أو على التحصن بمكانه هذا عدا عن التخبط الذي قد يصيبه نتيجة لفوضى المفاجأة وفقدان القدرة على المناورة.

بيد أن التراجع المنظم والسليم للجيش إلى مواقعه قبل الهجوم قد يقلب الطاولة هذه المرة، حيث يكون قد استفاد من معرفته لقوة وتكتيك العدو، فيكشف من قدرته على المناورة، وكذلك من قوة موقفه الدفاعي. ولكن المدافعين في ذات الوقت يكونون قد خرق الدفاعات أيضاً، وبذلك تتبدل نتائج ثورة القتال المرتبطة بها،

حيث يصبح من أبرز نتائجها كما حدث في سقوط الجدران المحصنة القوية لمدينة القسطنطينية حين دكّتها قوات المسلمين المهاجمين في عام 1453م، ولكن كل شيء تغير بعد ذلك، فحين يكون الجنود في الميدان غير قادرين على الحراك، فإنهم سيصبحون في هذه الحالة - بلا شك - هدفاً ضمن سلسلة القصف الخطأ من النيران والمناورات.

يمكن للعديد من الظروف المحيطة والمتغيرة - كالجغرافيا والطقس وخطوط الاتصال - من أن تؤثر عميقاً في كلا الجانبين في الحصار، وفي الحالات القصوى لتلك الظروف، قد يتحول فيها الصياد فريسة.

فعلى سبيل المثال، فقد كانت القوات الألمانية قد أتمت 900 يوماً في حصارها الأسطوري لمدينة "لينينغراد" وذلك منذ عام 1941 حتى عام 1944، وقد شهد كلا الجانبين أقسى الظروف التي يمكن أن يتحملها الكائن البشري هذا عدا عن معاناة الجوع والبرد القارص وتفشي الأمراض.

لكن سكان مدينة "لينينغراد" المحاصرة والثكلى، كانوا يتلقون بعض قوافل الإمداد والإغاثة الشحيحة التي تمكنت من الإفلات من كماشة القوات الألمانية المحاصرة، والتي كانت قد قطعت كافة خطوط ووسائل الإمداد المحتملة، وهكذا، ففي نهاية الأمر، كانت الإمدادات الضئيلة تعزز من قدرة سكان المدينة على الاستمرار بالصمود والممانعة، الأمر الذي ساعدهم في تعزيز مواقعهم الدفاعية حتى، وحين وصلت تعزيزات الجيوش السوفييتية بمؤازرة القوات الجوية التي قامت بعمليات المناورة في عمق الجبهة، فقد تحولت القوات الألمانية القوية المحُاصرِة إلى قوات ضعيفة مُحاصَرة، وقد أدى ذلك في النهاية إلى دحرها ورفع رايات الاستسلام.

من الجدير بالذكر هنا، اعتبار وجود اختلاف آخر للحصار، وبعبارة أشمل، للتفاعل بين هذه الجريمة وبين الدفاع، ويمكن هنا ذكر مثال على ذلك، فحين كانت البحرية الملكية البريطانية قد تعرضت للحصار من قبل ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى القول بأن ذلك الإجرّاء كان فعالاً لدرجة أنهم قد اعتقدوا بأنه كان من أهم العوامل التي ساعدت الحلفاء على تحقيق

النصر في نهاية المطاف.

ومن جانب آخر، فقد كانت الثورة الاجتماعية التي اندلعت في ألمانيا قرب نهاية الحرب، من بين الأمور الأخرى التي ساعدت على تغيير الأوضاع، وكان يرجع أحد أسباب قيام تلك الثورة في جانب منها إلى تزايد الحرمان الشديد على المواطنين الذين عانوا لمدة أربع سنوات متواصلة، وقد كان من سمات هذا الحصار أيضاً هو توسيع نطاقه ليشمل دولاً معادية، أو حتى غيرها من الدول المحايدة، مع وجود طرف مساعد، وهو قيام بعض الدول بعدم السماح لعبور السفن التابعة للدول التي كانت تؤيد ألمانيا، بل واحتجازها في بعض الحالات.

ومع تقدم الوقت وتطور التكنولوجيا والإستراتيجيات العسكرية، فقد أصبح يُنظر للحصار منذ منتصف القرن العشرين وللمناورات واستخدام القوة الحاسمة من الجو على أنه إستراتيجية غير مؤكدة.

وقد كان الجسر الجوي إلى برلين عام 1948 وعام 1949 قد أثبت تلك النظرية بالفعل على اعتبارها حلقة هامة في الاستخدام المبتكر لهذه المناورات، وكذلك التهديد باستخدام القوة حيث استخدمت الطائرات تكتيك الالتفاف ومحاولة للضغط على سطح الحصار.

وهكذا، يمكن القول بأن الحصار يعكس الطبيعة الديناميكية لتحقيق التوازن بين الجريمة والدفاع.

في شهر تشرين الثاني / نوفمبر من عام 1953 وبالقرب من الحدود الشمالية بين "فيتنام" و"لاوس" الفرنسية، كانت المعارك قد بدأت أولاً في المناطق النائية حيث يعيش المحارب "حسن فو" في إحدى القلاع القديمة.

وفي محاولة من الفرنسيين لجذب المعارض "فييت مينه" بعيداً في عمليات حرب العصابات في مجموعة كبيرة - والتي كانوا يعتقدون من أن المعركة ستكون في مصلحتهم - فقد نصبت القوات الفرنسية مصيدة محكمة لتلك العصابات وقاموا بنشر نحو 13000 من الجنود والكثير من السلاح لدعم "دين حسن فو". وثمة افتراض هنا، من أن شبكة الخطوط الفرنسية للنقل الجوي ستكون قادرة على نقل

الإمدادات والتعزيزات إلى مهبط للطائرات داخل المجمع الذي تسيطر عليه.
في أوائل عام 1954 كان يبدو أن ثمة فخاً قد تم إعداده "لدين حسن فو" الذي كان محاطاً بنحو خمسين ألفاً من جنود الجيش الشعبي في فيتنام، والمعروف باسم "فييت مينه".
ولكن عندما قام الفيتناميين بالهجوم بقيادة الجنرال "فو نغوين" فقد كان ذلك إيذاناً جدياً ببدء الاشتباكات في 13 آذار / مارس، وقد صُدم الفرنسيون من كثافة تعرضهم لنيران المدفعية، والتي كانت تقصف رغم كل الصعوبات لنقلها عبر الأنهار، وعبر الأدغال، وأكثر من ذلك نحو قمم التلال والجبال المطلة على مناطق نفوذ "دين حسن فو".
كان القصف المدفعي الشديد قد تغير بشكل جذري ليحذو حذو معادلة الجريمة مقابل الدفاع، حيث تعرضت كافة التحصينات الفرنسية والمواقع اللوجستية إلى ضرر بالغ وعلى نحو فعال، ما أدى إلى إغلاق المدرج الذي تضرر بدرجة كبيرة.
وهكذا، فقد استسلم "حسن فو" في 7 أيار / مايو وكان ذلك إيذاناً بانتهاء السيادة الفرنسية في الهند الصينية.
بعد أربعة عشر عاماً على ذلك، وخلال الحرب الأميركية في الهند الصينية، كان محتماً على القوات المشاركة في تلك الحروب مواجهة أوضاع مماثلة وقد بدأت تتكشف عندما حوصرت القاعدة الأميركية المحصنة أيضاً بالقرب من الحدود بين "فيتنام" و"لاوس" ولكن إلى الجنوب من "دين حسن فو" من قبل القوات الشيوعية مرة أخرى، ولكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة بقيادة جنرال مدرك لخطورة هكذا مواقف، حيث سارع باستخدام تكتيكات دفاعية حاسمة ومتفوقة، فقام بعمليات إنزال جوي، واستخدام الدفاعات الجوية، الأمر الذي رفع من قدرات الأميركيين، وعلى الأخص أن خطوط الإمداد لم تُقطع كما حدث مع الفرنسيين. وربما الأهم من ذلك هو قيام المدافعين الذين تمكنوا من شن غارات جوية كثيفة، والتي تشكلت مجتمعة مع دوريات المكافحة العدوانية التي شنت من داخل القلعة التي كان الشيوعيين قد أنشؤوها وتحصنوا فيها، وقد استمرت المعارك والقصف إلى الحد

الذي لم يستطع فيه الأمريكيون من الاستمرار، فقرروا الانسحاب في منتصف آذار / مارس من عام 1968 على الرغم من أنهم كانوا قد كبدّوا الشيوعيين أكثر من اثني عشر ألف قتيل لكنهم فقدوا بدورهم حوالي مئتي قتيل من القوات الأمريكية.

ومن الأمثلة الأخيرة أيضاً ما حدث في "البوسنة والهرسك" عام 1992 وذلك عندما كانت القوات الصربية المسلحة تسعى للانفصال عن الدولة المستقلة حديثاً في البوسنة، وقد توصلت تلك القوات إلى أن الخيار الأفضل لحدوث ما تؤيد هو الخيار العسكري وفرض حصار على المدينة المتنازع عليها في "سراييفو".

كانت القوات شبه العسكرية الصربية قد استولت على المرتفعات المحيطة "بسراييفو" وأغلقت جميع المنافذ والطرق التي تؤدي إلى المدينة، ثم فعلوا كما فعل الجيش الفيتنامي في مدينة "فو"، فبدؤوا بقصفها بلا هوادة، ولكنهم في هذه الحالة استخدموا أسلحة أكثر فتكاً بالاشتراك مع المدفعية والصواريخ وقذائف الهاون.

استطاعت المليشيات الصربية في البداية تحقيق حصار شديد حول "سراييفو" وكان يبدو من أنها قد أفلحت في ذلك بعد أن خلفت خسائر كبيرة بين المواطنين وأخرى لحقت بالمدينة، وبالبنية التحتية وكانت الأضرار بالغة.

ولكن بحلول منتصف عام 1993 كان السكان المحاصرون قد اضطروا - تحت ضغط الحصار والرعب الدائم - لأن يفكروا بطرق بديلة لتأمين اللوازم الضرورية للبقاء أحياء، فقاموا بحفر أنفاق تحت المدينة لنقل الإمدادات وهكذا، استطاع بعض الناس تأمين المؤن، مع وجود تدخل دولي إنساني من بعض الدول التي قامت بتقديم بعض المساعدات الإنسانية عن طريق طلعات جوية - غير مدعومة - لرمي بعض الطرود التي تحتوي على المواد الضرورية.

في هذه المرحلة، كانت القوات الصربية لا تزال تحكم قبضتها العسكرية على المدينة بشكل صارم، لكن الحملة العسكرية تلك كانت على وشك أن تبوء بالفشل لكلا الجانبين، فقد كان الأمر فيما يبدو أن أحداً منهم لن يكون قادراً على الخروج من الطريق المسدود دون مساعدة.

وقد تبلور هذا الشعور في التوازن بين سلطة النار (القصف الصربي) وبين المناورات

داخل مدينة "سراييفو" وفي مساعدات النقل الجوي التي أوصلت الأمر إلى حالة التوازن.

استمرت حالة الجمود تلك عدة سنوات حتى تم التوصل أخيراً إلى حل سياسي في عام 1996، وهو الوقت الذي كان فيه حصار مدينة "سراييفو" قد أصبح أطول فترة حصار في التاريخ الحديث.

يوفر الحصار دائماً نموذجاً للتوتر الكامن بين الجرم وبين الدفاع، ذلك لأنه يدل على أن هناك الكثير من الظلال الرمادية بين البلدين (المحاصِر، والمُحاصَر) ولاختبار ذلك، ففي حين أن الحصار - إلى حد كبير، في بعض الأحيان - أن يكون ذا سمة مبتكرة، إلا أنه قد يصبح في مواجهة مناورات واسعة النطاق. ولكن يمكن اعتبار الحصار أيضاً نموذجاً مفيداً آخر لشكل العمليات البرية التي تساعد في اتخاذ موقف الحرب، والتي هي بحكم تعريفها تميل إلى الأضداد من المناورات الحربية.

من الواضح أن أي من الجنود الذين يضعون كل من الخيارات الإستراتيجية بشأن محاصرة قطعة من الأرض، يكونون ملتزمين بمنطق الحرب ومواقفه الطارئة، وبطريقة نتائج الصراع الذي يقرر في نهاية المطاف الجهة التي سترجح الكفة نحوها. وقد تكون الجغرافية هنا إحدى الميزات التي قد تكون بمثابة موقف ينبغي الدفاع عنها، والتي تتراوح بين حفرة ضحلة على تلة، إلى ميناء يحاصره أسطول، إلى قاعدة على جزيرة، ولذلك، فقد يتراوح اتخاذ موقف القوات المحاصرِة بدورها، وقد تقوم باعتداء مباشر وفق سلسلة معقدة من الهجمات، وقد تقوم القوات المُحاصرَة بصد تلك الهجمات وتقوم بتكتيكات دفاعية خطيرة، الأمر الذي قد يطيل من أمد الحصار، كما حدث مع القائد البحري المخضرم "دوغلاس ماك آرثر" في حملته على جزيرة في منطقة المحيط الهادئ في الحرب العالمية الثانية لمجرد مروره بالقرب من المواقع المعادية، وكذلك ما حدث مع الحملات البرية خلال الحرب العالمية الأولى، وما حدث في المواقع العسكرية في حرب العراق وإيران بين عامي 1980 و1988.

ليست الحرب، إلى حد ما، سوى خطوة واحدة من الحصار، وذلك لأن خطوط الجبهة إلى جانب أطراف النزاع المتحاربة يكون في البداية ثابتة نسبياً. ولكن بعد البداية السريعة ومن مسافة بعيدة للمناورة، تتغير معايير وموازين الحرب، وتعتبر الحرب الكورية مثالاً على ذلك، حيث تحولت إلى جمود في الموقف النهائي على مدى 21 سنة على جبهات القتال التي استقرت على امتداد حدود ما قبل الحرب.

ولكن في بعض ظروف معينة، لا يمكن بالطبع، ولأسباب قوية أن تدعو لاتخاذ الموقف التكتيكات، ولذلك، فقد يتوجب الأمر مدة أكثر من عام للمناورة التي تشمل القوة الحتمية لضعف القوة في محاولة لاستخدام الأرض للدفاع عن نفسها، وضرورة وقف تقدم القوات المتفوقة.

وهذا الدفاع البطولي للتضييق، هو ما يخبرنا عنه التاريخ العسكري القديم حيث تمكن ثلاثمئة فارس إسبارطي في القرن الخامس قبل الميلاد مدعومين بنحو ألف فارس آخر أو نحو ذلك من مواجهة ربع مليون جندي من جنود إمبراطورية الفرس، وقد كان ذلك الزمن هو زمن امتحان للتحدي لهذه الأخيرة، لأنه، وفي نهاية المطاف، كانت قد هزمت شر هزيمة من الحلفاء اليونانيين.

وبالعودة إلى "كلاوس" وإلى نظرية التوازن بين الدفاع وبين الجريمة، فإن الكتابة عن الحرب بين الجيوش على مر التاريخ، يعتبر أمر غير يسير، وعلى الأخص عن الحروب التي تقودها الجيوش الخاضعة لوزارات الدفاع التي تنفّذ تعليمات القيادات العليا بشكل أسهل وبإجرّاءات أكثر تنظيماً.

ولكن إستراتيجيات الجيوش التي تكون في موقع الدفاع، قد تكون قادرة على إطلاق النار بدعم من الطائرات أو السفن، ولكن نماذج القدرات قد تغيرت في الآونة الأخيرة وبشكل روتيني، وذلك من أجل وضع التوازن بين الدفاع والجريمة، وفي كثير من الأحيان، أثناء المعارك البرية.

والواقع أن طبيعة الحرب في البحر، وكذلك في الجو يخلط التعميمات التي قامت في الماضي على الذين يفضلون الدفاع.

وهكذا فإن تخفيض تأثير العوامل الجغرافية في البيئة البحرية يجعل الكفة ترجح

في الغالب للقوات الدفاعية البحرية في أفضل الأحوال لحين استكمال غياب المعالم الجغرافية، ولكن من ناحية أخرى، فقد تكون أجواء أخرى قد تجعل الكفة ترجح - وبشكل خطير - نحو الكفة الأخرى وقد يؤدي ذلك لسوء تقدير القوات الجوية، وتكون النتائج كارثية، وهذا ما يؤكده تاريخ المعارك للسيطرة على الجو. تقليدياً، كانت هناك مدرستان فكريتان بشأن أفضل السبل لكسب التفوق الجوي.

وكان هناك نماذج خاصة وذات منحى كلاسيكي رسمي، حيث كانت تلك النماذج تقوم على أنه من الأفضل تدمير القوات الجوية للعدو، وهي جاثمة على الأرض، وكذلك شن هجمات خاطفة على المواقع الإستراتيجية والهامة للعدو ومن ثم العودة سريعاً بعد حصد نتائج حاسمة.

أما النموذج الآخر فيدعو إلى القيام بدعوة المكافحة الجوية مع المقاتلات المعترضة، وكذلك شن هجوم دفاعي على المواقع المعادية، لكن تلك التوقعات غالباً ما كانت تؤدي إلى معركة استنزاف، والتي كان القائد الإستراتيجي الأمريكي "وليم بيلي ميتشل" قد تمسك بها مبكراً. ولكن في الواقع، لا يمكن أن افتراض ذلك سيؤدي إلى هيمنة دائمة.

وهكذا، فإن استخدام القوة وعلى الأخص القوة الجوية قد يؤدي إلى نتائج تدميرية، وهذا ما كان يحدث منذ الحروب الأولى وحتى عام 1990 حيث تكون الغلبة في كثير من الأحيان لمن يستطيع السيطرة على الجو عموماً وعلى طريقة الهجوم، ولكن الوصفة الدفاعية كانت تتحقق وهي التدمير على أرض الواقع، وهذا ما أحدثته القوات الجوية في المدن التي قصفتها في منتصف عام 1941، وكذلك ما قام به سلاح الجو الإسرائيلي في شهر حزيران / يونيو 1967 وهذا على سبيل المثال، ما ساهم بوجود الانحرافات التاريخية.

كانت معظم القوات الجوية تُفضّل أن تنظم نفسها من أجل الدفاع الجوي المضاد لأنه من الأسهل عليها القيام بالتنظيم والتخطيط قبل وقوع الأسوأ، وقد كان ذلك أقل إثارة للجدل من الناحية السياسية أيضاً، وحيث يمكن تركيز التفكير حول

الأصول الوطنية الحيوية مثل القيادة، والبنية التحتية والجيش.

ولذلك، فقد كانت الغلبة الدفاعية المضادة الجوية تعتبر النموذج الواضح على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى، كما في معركة بريطانيا (1940)، وخلال تدمير "لوفتوافا" على ألمانيا في عامي 1944 - 1945 وكوريا (1950- 53)، وفيتنام (1965- 72) وجزر فوكلا ند (1982) ووادي البقاع (1982).

كان تدمير "لوفتوافا" يعتبر الأكثر وحشية من ألمانيا في عامي (1944 - 1945) وقد وصفت عمليات التدمير آنذاك بأنها عمليات "دفاعية مضادة للعمليات الجوية"، لأنها وصلت إليها من كافة الجوانب، والتي كانت متحالفة مع المقاتلين على الجبهات. كان يمكن لمنفذي العملية أن يتحركوا بحرية في الفضاء، ولكن في واقع الأمر، كانت هناك نقطة واحدة سميت "بالنقطة الحيوية" التي كانت ترافق خطط المقاتلات التي حلقت ضمن دائرة الطيران المدني. وقد وضعت "وفتوافا" لمهاجمة القاذفات تدريجياً، والتي دمرت في حرب استنزاف، ولكن بدءاً من حرب الخليج عام 1991 في العراق، واستخدام التكنولوجيا الجديدة كلياً، يبدو أن بندول المبادرة قد تحول للاتجاه الآخر، بما في ذلك نظم الأسلحة القوية مثل الرادارات طويل المدى، والتشويش الإلكتروني، وأسلحة التخفي، ومنصات الأسلحة البعيدة المدى، والصواريخ عالية السرعة، وتلك المضادة للرادار، والتي وفرت في مجملها للمهاجمين تفوقاً حاسماً.

ومن هذا المنطلق، يكمن تفسير تحقيق بعض الانتصارات في الحروب والحملات التي تقودها الولايات المتحدة حملات في منطقة البلقان (1995 و1999) وأفغانستان (2001 - 2002) والعراق في الفترة الواقعة بين عامي (1991 و2003) وقد نالت في ذلك الأغلبية الساحقة لشهادات تفوق الجريمة على مدى الدفاع، وعلى الأقل في الجو، وبالنسبة للتوقيت أيضاً.

ولكي نكون منصفين "لكلاوس" فإنه ينبغي لنا أن نعترف بأنه كان مؤهلاً تماماً لحالة الدفاع عن النصر ذلك أنه سيكون من غير المرجح القيام بذلك في حال عدم وجود حملة هجومية أو هجوم حاسم، وهذا التحذير يثير مرة أخرى مسألة معرفة ما

نعنيه بالانتصار، وكذلك في تحديات القادة ابتداء من إتقان فن الحرب عن طريق إعداد حملة هجومية يمكن التغلب من خلالها على نقاط القوة الكامنة للدفاع.

تعتبر التكنولوجيا في العصر الحديث سيدة الموقف اللوجستي وكذلك في مساندة شكل مناورات المركبات وسلطة القيادة المركزية، وعلى الرغم من أنها تشكل تحدياً، إلاّ أنه قد تم الرد على هذا التحدي في جميع العصور والحالات والأوضاع الجغرافية، ذلك لكون التكنولوجيا لا تقترن بالعقيدة القتالية السليمة والقيادة المختصة، وليس من المرجح أن تقدم أجوبة في حد ذاتها.

فعلى سبيل المثال، كانت تقنية إعادة كرّة المناورات باستخدام الخيول بوصفها وسيلة من الوسائل التي استخدمتها القوات الأمريكية الشمالية في مواجهة الإسبان في القرن السادس عشر، وقد أدى ذلك إلى إحداث ثورة على طريقة يمكن من خلالها محاربة الهنود، لكن الهنود - بما لديهم من قدرات حربية وخبرة ممتازة في العثور على آثار التنقل بشكل كبير الأمر الذي يعزز من قدراتها على أخذ زمام المبادرة - على أن تستمر بالهجوم. وكما ذكر سابقاً، فإن النتيجة بالضبط ستكون نفس النتيجة التي حققها القائد الميداني "مانيش" في وقت لاحق على جبهة مدينة "هاميل"، وهو ما تم استغلاله فيما بعد أيضاً في المناورات في الحروب الحديثة المحدودة وذلك باستخدام سيارات جديدة، وأساليب مبتكرة باعتبارها الوسيلة التي يمكن للجيوش الثقيلة حتى الآن من التغلب على الآثار المدمرة لاستخدام القوة، مما يؤدي إلى المزيد من القتل باستخدام بطاريات المدفعية والرشاشات الآلية.

البحث عن الانقطاع:

تنطوي الإستراتيجية دائماً - في جميع المستويات - على البحث عن الانقطاع، وكانت دائماً في سباق لخلق عدم التطابق في القوى التي يمكن أن تكون موجهة ضد الخصم الأضعف، وفي مبادرات مثل النهج غير المباشر واستغلال عامل السرعة، والتضاريس، والتكنولوجيا، والمقصود أن تمنح ميزة مستمرة في النضال من أجل التفوق.

إلاّ أنه، ومنعاً لخطر السقوط في معاني الكلمات، فإنه يمكن اعتبار هذا النوع من

المناورات كمعاهدات الصداقة والتعاون بدلاً من الدعوة لتطبيق قوة النيران والمناورات. وفي هذا السياق، فمن المفترض أن تكون اثنتين من المبادرات الأخرى بارزة في مناقشة الإستراتيجية في بداية القرن الحادي والعشرين حيث يمكن أن تعتبر أكثر الإستراتيجيات رسوخاً في حد ذاتها. وعلى الأخص ما يسمى بالحرب غير المتكافئة، وبالمذهب الوقائي.

لكن ذلك قد ينطوي على خطوات مشكوك فيها، ويمكن هنا تقديم لمحة عن الارتفاع الحاد في ترتيب الأفكار الإستراتيجية في أعقاب الهجوم على الولايات المتحدة من قبل تنظيم القاعدة في شهر أيلول / سبتمبر 2001.

على الرغم من أن تلك الحرب كانت تعتبر من الحروب غير المتكافئة، بيد أنها أصبحت هي الطريقة المفضلة لتطبيق القوة من جانب الضعيف ضد الجانب القوي، حيث يفضل اللجوء إلى الأنصار الذين يفتقرون إلى كل من الموارد والقوة السياسيتين لطعن سياسات المعارضين داخل البنية العسكرية.

وعلى العكس من ذلك، وفي استجابة جزئية، مع الاستخدام المتزايد للوسائل والطرق غير المتماثلة التي استخدمتها القوى العسكرية العملاقة عسكرياً - مثل الولايات المتحدة وإسرائيل - قد استخدمت بشكل متزايد كوسائل وقائية للتعامل مع هذا التهديد الجديد، وبالطبع مع وجود النية بالتصرف من قبل الهجمات غير المتماثلة التي يمكن حدوثها وذلك كما حدث في مرحلة ما بعد أيلول / سبتمبر، والتي تعتبر نقطة البداية لمفهوم الحرب غير المتكافئة، وكذلك الميل الطبيعي لتعظيم المزايا النسبية من المنافسين الحاليين أو المحتملين.

كانت البحرية الملكية في المملكة المتحدة تعتبر كأداة أساسية للإمبراطورية في بسط القوة بين القرنين السادس عشر، وحتى القرن العشرين. وقد كان القائد البحري "ألفريد ثاير ماهان" قد ذكر في مقالة عن البحرية الإستراتيجية المتعلقة بالأمة والثروة مباشرة، وعلى قدرته في السيطرة عليها واستخدامها في البحار، والانتباه إلى حد كبير من تحليله للأسطول الملكي وللحالة الهجومية السائدة على مستوى العالم، وكذلك الدفاعية، مع قوة الردع لعدة قرون، ويتمتع بها عدد قليل

من الأمن للدول التي تحيط بها البحار، وهذا ما يمنح ميزة تنظيمية غير متماثلة، والتي تؤدي بالقيادات البريطانية المتعاقبة تسير قدماً نحو جعل الحكام في بيئة أكثر من البيئة البحرية للاستكشاف، والتجارة والاستعمار وبناء الإمبراطوريات، وأخيراً وليس آخراً، استخدام الوسائل العسكرية من أجل الدفاع.

يمكننا هنا اعتبار أن بعض ما يقوم به الضعيف ضد القوي في هذا الجانب - من حيث الجغرافيا على الأقل - ليس أكثر من حسن الحظ، والتي كانت، إلى حد ما موضع شك، ولكن الحظ لم يكن دائماً هناك، وعلى الأخص، فيما يتعلق بالأحداث المرتبطة بسلسلة من العوامل السياسية والاجتماعية والدينية، أو فيما يتعلق بالإصلاحات الاقتصادية التي جعلت من الممكن الجمع فيما بينها في المملكة المتحدة في وقت مبكر مع أحضان التجارة والتصنيع، والتي بدورها على حد سواء، كان مؤمناً عليها ومحمية من قبل البحرية البريطانية التي تفرض الهيمنة أينما حلت.

كانت هناك قوى أوروبية منافسة أخرى لبريطانيا كإسبانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا، وجميعها قد بنت أساطيل كبيرة، ولكن لا شيء على الإطلاق كان يمكن أن يكون قادراً على منافسة قوة البحرية الملكية.

ومن العوامل الرئيسية هنا أنه لم يكن هذا القدر من الوجود البحري ذا ميزة نسبية، ولكن في عدم وجوده أصلاً، ولكن فيما بعد، فقد تقاسمت القوى القارية الحدود البرية مع القوى الأخرى، وهذه الدول تعرف تماماً أن أكبر تهديد عسكري سيكون من زحف الجيوش الغازية.

وهكذا، فخلال الفترات التي جرَّبت فيها تلك القوى الكبيرة مستويات مختلفة لقوة الجيوش، فإنها قد وضعت الأولوية لبناء جيوش قوية للدفاع عن وطنهم. وهذه هي الطبيعة السياسة الأوروبية في أن تلك الجيوش قد كانت بشكل روتيني، وقد دعيت على الدوام إلى الحفاظ على المكاسب.

وفي النهاية، فإن المذابح الجماعية التي نفذت أثناء الحرب العالمية الأولى قد كشفت عن إظهار مدى العنف المستخدم من أجل القتل - والذي تساوى بين تلك القوات -. وبعبارة أخرى، فإن أياً من أطراف النزاع قد تمكن حسمه، وذلك استغلال الميزة

النسبية العسكرية الوطنية. وربما في ظل هذه الظروف لم يكن ذلك ممكناً، ولكن الملاحظة العامة لذلك لا تزال مفيدة.

قد تكون التكنولوجيا، والعوامل الاجتماعية والديموغرافية قد استخدمت إلى حد أكبر من الجغرافيا في مختلف المحاولات الرامية إلى تطوير الميزات النسبية الوطنية. وعلى سبيل المثال، في مطلع القرن العشرين. فقد كانت فرنسا تعتبر واحدة من أوائل القيادات الحربية والبحرية في تطوير الغواصات، كما سعى مسؤولون آخرون في التكنولوجيا غير المتناسقة القيام بذلك رداً على السيادة البحرية المنافسة آنذاك، وعلى الأخص المملكة المتحدة، وفي هذه المناسبة، ولأسباب متنوعة، فإن هذه المبادرة لم تنجح.

وبالمثل، فخلال المواجهة بين الصين والولايات المتحدة بشأن كوريا في عام 1950 وعلى الأخص فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية، وذلك لكثرة السكان الفقراء في الصين الغنية، حيث كانت الصين قد استندت إلى خطط الحرب والدمار والاعتداءات، وكان ذلك بمثابة وثيقة لمتابعة القتال، والاستنزاف، بينما سعت الولايات المتحدة إلى حشد قوي في الاقتصاد، وتعليم سكانها بشكل جيد، مع القفزات الهائلة فيما يتعلق بالتفوق التكنولوجي، الأمر الذي سيؤدي إلى يسر في القدرة على دخول الحروب بأعداد أقل، ولكن بكثير من المعرفة والدقة، وعلى مسافات متباينة كما يؤدي النمو السريع للاقتصاد في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهذا ما أصاب الصين حيث تمكنت وبشكل متزايد من التركيز على تحسين التكنولوجيا العسكرية وتطويرها، ولكن تبقى القدرة في الميدان بأعداد هائلة على أرض الواقع هي السمة المميزة لقوتها العسكرية.

يأمل عدد غير قليل من البلدان في مباراة الصين للولايات الولايات المتحدة من حيث التكنولوجيا وأسلحة الدمار، مما يؤدي إلى ممارسات غير متماثلة فيما يدعى بحرب العصابات ونمو الإرهاب يشكل متميز من أشكال المناورات واستخدام القوة.

لكن عمليات حرب العصابات كان يعتبر الرد التقليدي من قبل المنظمات الأخرى التي تمتلك الوسائل الكافية لتحدي خصومهم العسكرية ضمن الميزة النسبية،

وهذا ما يمكن ذكره هنا في هذا السياق وإن كان على نطاق ضيق.
ومن الأمثلة على ذلك، حركة الاستقلال الأندونيسية بقيادة "سوكارنو هاتا محمد" والتي انتصرت على الحملات الهولندية لنيل الحرية في عام 1949 و"فيديل كاسترو" في الحملة التي أطاحت بنظام الرئيس "فولجنسيو باتيستا" في كوبا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وبذلك فقد حل النظام السابق وأعلن النظام الاشتراكي ذا المنحى الشيوعي.
أما من بين الأمثلة واسعة النطاق، فإن التجربة الصينية هي أفضل مثال على ذلك، وما فعله الزعيم الشيوعي الثائر "ماو تسي تونغ" في ثورته الموسعة للاستيلاء على سلطة الدولة في الصين، والتي نجحت في النهاية في عام 1949 قالبة كل المفاهيم السائدة آنذاك والتي اعتبرت على أنها من أهم الثورات الناجحة في التاريخ الحديث.
كانت تكتيكات حرب العصابات أو تكتيكات المنظمات الحزبية في بعض الأحيان تعزى إلى الجهات الفاعلة في الصراعات التي تنطوي على قيادات خاصة في معزل عن قيادات الدول، لكنها كانت تستخدم من وقت لآخر من قبل العديد من الدول، وفي معظم المنظومات العسكرية وعلى الأخص حين تكون قوات الجند والعسكر قليلة العدد أثناء مواجهة جيوش أكبر منها.
وفي هذا السياق، يمكن ذكر التجربة السوفييتية، حيث كانت قوات الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، تخوض أكثر من معركة وعلى أكثر من جبهة، ولذلك، فقد تعثرت القوات السوفيتية في صدّ الغزو النازي في منتصف عام 1941 حيث كان قادتها في البداية، يميلون قليلاً إلى الاستخدام الإستراتيجي للقوة، لكن ذلك لم يكن ينجح على الدوام، وعلى الأخص مع عدو جيد التدريب ومجهز بأحدث ما توصل إليه عقل الإنسان في اختراع القوة التدميرية، ولذلك، لم يكن أمام جنرالات الحرب السوفييت الكثير من الخيارات سوى اعتماد أساليب حرب العصابات مع الجيش الغازي الذي اضطر في أحيان كثيرة إلى التراجع بسبب المضايقات، بل وتأخير تقدمه بشكل مؤثر بما في ذلك نصب الكمائن، وتدمير البنية التحتية وطرق الإمداد والمواد الغذائية التي تساهم في عدم استقرار حالة التقدم

نحو عمق الجبهة.

كان القائد الأكبر - والأهم - في الجيش الأحمر وفي ساحة المعركة، هو المارشال "جوكوف" الذي كان من القادة الأبرز في ميادين القتال على الجبهات، وكذلك فيما يتعلق بحرب العصابات، وقد استخدم مهاراته في صد الغزو الألماني لبلاده مستخدماً اثنتين من أقوى المزايا النسبية والمتمثلة في:

1 -ظروف الطقس القاسية للغاية.

2 -العمق الإستراتيجي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

ثم، وبعد أن ضمن نجاح إستراتيجيته، قام باستخدام جميع الأساليب التي من شأنها أن تبُطئ التقدم النازي مسبقاً، والذي أفرط في استخدامه لخطوط الاتصالات، مما أدى إلى كشف النهج العسكري لتقدم القوات الألمانية الزاحفة بلا هوادة نحو العمق السوفيتي، وهكذا، ففي نهاية المطاف، فقد وجد الألمان أنفسهم محاصرين تماماً ضمن الفخ السوفييتي وفي فصل شتاء قاس وقاتل ولا يرحم.

كان الجنرال "جوكوف" قد اعتمد على لعبة حرب العصابات الكلاسيكية لكسب الوقت، مستفيداً من الكثير من التجارب السابقة عبر التاريخ، الأمر الذي أدى إلى حشدت حجم أكبر من القوات، وهذا ما جعل المعارك التي شهدتها تلك المناطق تتضاءل شيئاً بعد ذلك على الجبهة الغربية، والتي كانت تهدف في مجملها على كل النوايا والمقاصد في نهاية المطاف إلى تدمير ودحر القوات الغازية، وقد قال "جوكوف" بعد ذلك بأن اعتماده على حرب العصابات كان عنصراً حاسماً من عناصر إستراتيجيته الشاملة لتحقيق النصر، وهذا ما حدث.

وبوجه أعم، فعلى غرار وحدات النخبة الخاصة والتابعة للقوات الخاصة والتي توجد في معظم الجيوش المحترفة، فإنها تعبّر عن الكثير من خصائص المسلحين. وفي الواقع، فإن الوحدات المدربة من هذا القبيل في بعض الأحيان تكون غير مستقرة ضمن نطاق ضيق في كثير من الأحيان، وذلك على طول الخط الذي يفصل بين حرب العصابات وبين الإرهاب.

ويمكن في هذا السياق ذكر هدف الولايات المتحدة الأمريكية من العملية الشهيرة

في نشوء ما يدعى بعملية "أوبرا فينيكس" في جنوب فيتنام في الفترة الواقعة من عام 1960 وحتى عام 1970 والذي كان يهدف في البدايات على سبيل المثال إلى تحييد ثوار "الفيتكونغ" والقضاء على نظامهم السياسي، وقد كانت تلك المنظومة الأمريكية إذا صح التعبير تميل إلى تنفيذ الاغتيالات السياسية رسمياً.

و في الوقت نفسه، فإن الإدارة الأمريكية كانت تشجب الإرهاب على المنابر، على الرغم من الحملة الشّعواء التي تشنّها ضد "الفيتكونغ" الفيتناميين الجنوبيين غير المتعاونين.

على الرغم من أن عملية "فينيكس" لم تكن فريدة من نوعها، ذلك لأنها في حقيقة الأمر كانت تعتبر في صلبها كعملية إرهاب الدولة، لكنها كانت دائماً سمة من السمات العسكرية السياسية المنافسة. بل وتمتد زمنياً إلى تطبيق العقوبات الصارمة مثل الإعدام، والتعذيب والاسترقاق والنبذ الروتيني ضد المتمردين - والذي كان يطبق في التاريخ القديم نسبياً - على المواطنين والعبيد من قبل اليونان والرومان القدماء، وعلى منهجية وحشية مثل القوى الاستعمارية البريطانية والإسبانية والهولندية والفرنسية والبرتغالية، ويكاد يكون أمراً غير مفهوم على النطاق الإرهابي ذلك الذي تعرض له المجتمع السوفييتي في عهد "ستالين" ضد نظرائه السياسيين المشكوك بولائهم للبروليتاريا، وكذلك ما فعله "ماو تسي تونغ" في الصين.

وهكذا، فمنذ الحرب العالمية الثانية، كان هناك الكثير من القمع المؤسسي الذي قد يكون منظماً، وذلك في بعض الأنظمة كنظام "كاسترو" في كوبا، ونظام "عيدي أمين" في الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، ونظام "صدام حسين" في العراق، و"روبرت موغابي" وعشرات آخرين.

ولكن، على الرغم من أن هذه الأنظمة المتشابهة قد استخدمت مذهب الإرهاب كأداة من أدوات السياسة العامة للحكومة، وهذه الطريقة، كانت هي الأكثر شيوعاً ضد الشخصيات المرتبطة بالجماعات المتطرفة التي تعمل خارج نطاق الدولة، ولذلك، فإن قائمة مرتكبي تلك الأساليب الإجرامية في تصفية من يقف في الطريق،

obeikandl.com

وقد تمتد لآلاف وآلاف، بل وتكاد تغطي حقبة التاريخ المسجل بالكامل من هؤلاء المتعصبين والقتلة، من أمثال "أرغون ليئومي" والألوية الحمراء، وبعض الجماعات الإسلامية التكفيرية، وهلم جراً.

كانت لدى هذه الحركات قدرات معينة ناتجة عن ارتباطها بالسعي من أجل تنفيذ قضية معينة أو نهاية الدولة، والتي غالباً ما كانت أكثر علانية من تلك الإيديولوجيات التي طلبتها أكثر الحركات السياسية ذات القاعدة العريضة، ونقصد هنا، الحركات اللا إرهابية / غير المتماثلة، والتي قد عملت لكي تكون أكثر نجاحاً من الهجوم المذهل الذي قام به تنظيم القاعدة في الهجوم على أمريكا في الحادي عشر من شهر أيلول / سبتمبر 2001.

ولمجرد التأثير والإبداع، فإن تلك الغارة قد تم تداولها إعلامياً بشكل قل نظيره، ومن ثم دوِّنت وبجدارة في كتاب الإرهاب.

وهكذا، فإن نتيجة ذلك الهجوم لم تقتصر على الأثر السياسي الهائل، ولكن العواقب، قد امتدت لتطال النواحي الاقتصادية والاجتماعية، والكثير من النواحي الأخرى ذات البُنى المختلفة كشركات الطيران والعديد من الصناعات الفرعية التي منيت بخسائر هائلة خلال بضعة أشهر، بل ولحقت بها الكثير من الفعاليات المختلفة بالإضافة إلى إفلاس العديد من الشركات الكبيرة والمتوسطة، مما جعل الولايات المتحدة تضطر إلى شن شبه حرب كبيرة على ما يدعى "الحرب على الإرهاب" مع كل ما يرتبط بذلك من تكاليف، وعلى الأخص بعد أن أصبح كثير من الناس يخشون السفر، وفي المقابل، فقد انتعشت الحركات المتطرفة عموماً، بعد أن تلقت دفعة معنوية كبيرة.

كانت ردة فعل الولايات المتحدة تدعو للدهشة، وذلك لأنها قد تصرفت كجزء من الاستجابة الفورية في محاولة منها لمنع تكرار الهجمات على المواقع الأمريكية الحساسة، ومن أجل ذلك، فقد أعطيت الأوامر لطياري المقاتلات الحربية - التي تحلق ضمن دوريات منتظمة ودائمة للدفاع الجوي فوق المدن الكبرى - لإسقاط الطائرات الأمريكية المخطوفة والمليئة بالركاب دون أن يهتز ضمير الحكومة

obeikandl.com

الأمريكية، وهذا ما تم اعتباره على أنه من الصعب تصوره، بل وإنه إستراتيجية غير عادية.

كما أن الأثر الكامل لهذا الهجوم حتى الآن أصبح واضحاً، فإنه من المرجح أن يكون السبب الرئيسي في ذلك قد جاء كرد على انتهاكات الولايات الأمريكية المتكررة بحق الحكومات والشعوب الضعيفة حول العالم، لكن بوادر رد الولايات المتحدة إثر ذلك كان في الغزو العسكري للولايات المتحدة لأفغانستان في عام 2001 وللعراق في عام 2003، ولكن لا يمكن تقييم النتائج بصورة كاملة.

يستحق كل عمل من أعمال الإرهاب الكثير من الاستنكار والشجب، وليست أحداث هجمات أيلول / سبتمبر بمنأى عن ذلك، ولكن من خلال النظر من الزاوية الإستراتيجية، فإن تجربة تلك الهجمات توضح كيفية استغلال الميزة النسبية للقتال، والحرب غير المتكافئة. وهذا، إلى حد ما، يمثل الرد على الأحداث العسكرية السابقة المتراكمة على مدى أربعة وثلاثين عاماً.

من جانب آخر، يمكن أن يكون النصر الساحق الذي حققته إسرائيل على القوات المصرية والسورية والأردنية في ستة أيام فقط في شهر حزيران / يونيو من عام 1967 بمثابة بداية لفترة حروب قادمة، لكن القوات الإسرائيلية حينذاك، كانت تقاتل بمساندة تامة ودعم متكامل على كل المستويات من الولايات المتحدة وحلفائها، لكنها فيما يبدو، قد أصبحت تقريباً في إطار الحرب التقليدية؛ أي عند استخدام الأسلحة التقليدية على مسرح الأحداث الرئيسية، ومن ثم الامتثال لقانون النزاعات المسلحة.

ولكن، ففي أعقاب هزيمتها الساحقة في الهند الصينية، فقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية بإعادة التنظيم الفكري لمكوناتها، ولذلك، فقد بدأت تسعى ما بين عامي 1991 و2003 لإنشاء التحالف مع مختلف الحلفاء، وفي العمل على هزيمة المعارضين، كما حدث مرتين في العراق والبلقان ومرة واحدة في أفغانستان.

وهنا، فقد أصبح من غير المعقول لأي عدو أو قوة مسلحة أن يشكلا تحدياً للولايات المتحدة، ولكن فيما لو حصل ذلك، فإنه يجب أن يتم بوسائل غير تقليدية.

وهكذا، ففي ظل النجاحات المحدودة التي استطاع الإسرائيليون والولايات المتحدة تحقيقها في ساحة المعركة، فإن ذلك إنما يُعزى إلى الإمكانيات الهائلة للقوة الجوية، مما يسمح لها باستخدام الأجواء لجمع المعلومات الاستخبارية، التجسسية، وتحرك القوات، والإمداد، الأمر الذي يسهل بتوجيه ضربات قوية لدعم القوات السطحية أو الأهداف الإستراتيجية المباشرة.

على الرغم من أن البعد الإستراتيجي يكون دائماً حكراً على القوة الجوية لدى حفنة من الدول التي تمتلك الثروة والتكنولوجيا والتدريب الخاص الذي لابد منه من أجل إقامة قاعدة لسلاح الجو التقليدية شديدة التنظيم.

وهكذا، فإن النتائج الطبيعية التي يتم فيها افتراض أن البلدان الأقل تقدماً والتي لا تمتلك لمؤسسات الدولة، لا يمكن أن تكون فعالة للحفاظ على سلاح الجو.

تعتبر أحداث الحادي عشر من أيلول سابقة في تاريخ الهجمات المنظمة وكذلك في قدرة تنظيم القاعدة على السيطرة - ولمدة ساعتين كاملتين - على أجواء أكثر القوى الجوية فتكاً في التاريخ والذي استطاع طياري ذلك التنظيم أيضاً من السيطرة على أجواء الطيران المدني عن طريق الخداع، وقد استطاعوا دحر أحدث أنظمة الدفاع الجوي في العالم، وعلى الأخص، أنها ضربت بعد ذلك في وضح النهار، وفي عمق مدينة نيويورك والعاصمة واشنطن، وذلك دون أن يتم منعها من قبل قوى الدفاع الجوي الموحد.

وهنا، يمكن القول أن الولايات المتحدة بما في ذلك القوات الجوية والبحرية وقوات الجيش ومشاة البحرية قد اهتزت مصداقيتها على يد حفنة قليلة من تنظيم بسيط.

كان تنظيم القاعدة قد نجح في عملياته تلك بعد أن استطاع استغلال المزايا النسبية على وجه الخصوص ومنها:

- **أولاً:** تعتبر الولايات المتحدة مجتمعاً منفتحاً نسبياً، الأمر الذي يسمح للقوى الإرهابية من دخول أميركا، ومن ثم الاندماج في المجتمع، وبل وقد وصل الأمر في منفّذي هجمات أيلول إلى التدرب على الطيران المحلي في إحدى المدارس المتخصصة لتعليم الطيران، وكذلك التدرب على كل ما يتعلق بالمقاعد على الرحلات الجوية

التجارية، وهذا ما ساعد على عمليات خطف الطائرات وتحويلها عن مساراتها بشكل خدع منظومة القوات الجوية.

ولذلك، فإن أي شخص مسؤول يعمل في الدفاعات الجوية داخل الولايات المتحدة، لم يكن ليدري ما كان يحدث إلا بعد فوات الأوان.

• **ثانياً:** كان تنظيم القاعدة على استعداد تام لتنفيذ هكذا عملية نوعية غير مسبوقة، بل وكانوا متحمسين للموت من اجل قضيتهم. ولذلك، فقد كانت وزارة الدفاع الأمريكية بالكامل وأجهزتها الرديفة، تواجه نهج إستراتيجية قديمة متجددة بنيت على مدى قرون، وعلى افتراض أنه، في نهاية المطاف، فإن معظم المقاتلين يرغبون في البقاء على قيد الحياة نتيجة لخبراتهم في خوض المعارك، في حين أثبت تنظيم القاعدة قدرته على اختراق المجتمع الأمريكي وعقليته العدوانية تجاه النظام الأمريكي بل وضد الولايات المتحدة ككل، وقد فاز بتلك الضربة على كل أنواع الإستراتيجيات الأمريكية.

قبل اتخاذ أي تدبير للهجوم، كان تنظيم القاعدة قد أعدَّ العدة بشكل صحيح وبحرفية قل نظيرها، وقد كانت الإدارة الأميركية الإستراتيجية الوطنية قد تأخرت في الاستجابة الأولية للصدمة، ولكن، فمن خلال النظرة الإستراتيجية لما حدث، فإن تلك الضربة القاسية تنطوي تحت ما يسمى بالحرب غير المتكافئة، والتي كانت تعتبر دائماً سمة من سمات الصراع البشري.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد تلقت ضربة مماثلة - إن لم تكن أقسى - في الحرب العالمية الثانية، وذلك حين قامت اليابان بتوجيه ضربة مفاجئة وبالغة القسوة حين شنَّت الطائرات اليابانية المقاتلة هجوماً كاسحاً على ميناء "بيرل هاربور" في شهر كانون الأول / ديسمبر من عام 1941، ولربما كانت تلك الضربة هي الأكثر نجاحاً في تاريخ الحروب الجوية حتى ذلك الحين.

وعلى سبيل أمثلة أخرى، فقد كانت سلسلة الهجمات - التي شنتها القوات الألمانية أثناء غزو الاتحاد السوفييتي في حزيران / يونيو 1941 - من أبرز الضربات الجوية في الحرب العالمية الثانية، وكذلك الضربات الاستباقية المفاجئة التي أدت إلى

انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة عام 1967 والضربة الجوية التي قام بها سلاح الجو الإسرائيلي والموجهة ضد المفاعل النووي العراقي بالقرب من العاصمة بغداد في شهر حزيران / يونيو من عام 1981.

وهكذا، ومرة أخرى، فعلى غرار الحرب غير المتكافئة، فإن فكرة الضربة الاستباقية المفاجئة قد تحقق نجاح غير عادي، بل وقد تقلب موازين القوى في بعض الحالات، عدا عن الخسائر المدمرة التي تلحق بالأهداف المدروسة مسبقاً، ولكن الضربة التي تلقتها الولايات المتحدة في الحادي عشر من أيلول في بداية القرن الحادي والعشرين، كانت تعتبر الأقسى، ومرة أخرى، فقد تم اعتبارها على أنها النقطة الأساس للحرب على الإرهاب فيما بعد.

وهذا بالضبط ما حدث - ولا يزال يحدث - فخلال الخطاب الذي ألقاه في حزيران / يونيو 2002، قال الرئيس الأمريكي "جورج بوش الابن": إنه، وبدلاً من الاعتماد على الردع كأداة رئيسية انفعالية في السياسة الدفاعية، فإن الولايات المتحدة الآن قد بدأت العمل أولاً وتركت الشرح لوقت لاحق، فقد عزمت القيادة العسكرية ومن خلفها قادة البنتاغون ومدعومة بقيادة الكونجرس بأنها سوف تنقل المعركة إلى أرض العدو، حاشدة لذلك كل أنواع الدعم الإستراتيجي اللازم ومتوقعة مواجهة أسوأ التهديدات وحتى قبل أن تظهر.

وهكذا، فقد ساهمت هجمات الحادي عشر من أيلول - التي شكلت صفعة قوية هزت الثقة بوسائل الدفاع والسياسة الأمريكيتين على حد سواء - إلى ضرورة لم الشتات الحاصل - على كافة الصُّعُد - جرّاء الصدمة التي أذهلت أمريكا والعالم، ومن ثم البحث عن خلق سياسة عمل جديدة ومختلفة كلياً عن إستراتيجية الأمن القومي التي كانت تستند في الأساس على التراخي في النظرة الدفاعية الأمريكية - وقد يكون ذلك غروراً لمستوى القوة والتي دفعت ثمنه باهظاً - التي ظهرت للعالم وكأنها أمة ضعيفة عسكرياً ومعنوياً، الأمر الذي جعل البلد برمته ويبدو ضعيفاً.

لا يكمن الخط الدفاعي فقط في تقديم تنازلات للمبادرات المعادية، بل سمح لها أيضاً لإعداد قوتها التي تزداد نمواً في الوقت نفسه. مما جعلهم ينتظرون حدوث شيء

ما في مكان ما وذلك عن طريق هجمات إرهابية واسعة النطاق، لكن ذلك لم يعد خياراً، بل كان من المنطقي أن ردة الفعل ستكون قاسية جداً، (على الأقل في إدارة الرئيس جورج بوش).

ثمة هاجسان كانا يلوحان خلال تطبيق هذه الإستراتيجية ويمكن تلخيص هذين الهاجسين كما يلي:

1. كان الهاجس الأول يكمن في الحاجة إلى تدعيم مصداقية الردع فعلياً وعلى أرض الواقع بالإضافة إلى تطبيق القوة المفرطة من وقت لآخر من خلال إظهار القوة العسكرية الأمريكية التي لم تكن لتتصرف من تلقاء ذاتها دون تلقي الدعم من الإدارة العليا في كل من البنتاغون والكونجرس على حد سواء، ولذلك، فقد كانت تتلقى الإذن باستخدام القوة المفرطة في معظم الأحيان- إذا لزم الأمر.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الرؤية الضمنية في تلك الإستراتيجية الجديدة لمكافحة الإرهاب تكمن في الاعتقاد بأن الإدارات السابقة كانت ضعيفة، كما أن الجيش أيضاً كان يعاني من ضعف بعض مفاصله فيما يتعلق بالتصدي للإرهاب، وبالتالي، فإن الإستراتيجية الجديدة سوف تقوم بتقديم الدعم اللازم بالإضافة إلى كل ما من شأنه تشجيع القيادة العسكرية ومن خلفها الجسم العسكري الأمريكي لمواجهة الأعداء.

2. كانت هناك احتمالية بارزة - ومخيفة - في أن الهجمات الإرهابية في المستقبل قد تنطوي على استخدام أسلحة الدمار الشامل (النووية والكيميائية والبيولوجية)، والتي ستؤدي إلى بلبلة غير محسوبة العواقب في حال تم استخدامها، ولذلك فإن لهذا التخوف مبرراته القوية في قيام أجهزة الدولة بطلب تأمين أقوى الإجرّاءات الوقائية.

وقد ازدادت احتمالات وجود مثل هكذا احتمالات خطيرة قوة على الأخص بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق، الأمر الذي جعل من الضروري بمكان ترجمة الإجراءات الوقائية المطلوبة إلى واقع ملموس قد الإمكان واعتبار ذلك من الأولويات الوقائية في كافة نواحي الحياة واضعة إياها موضع التنفيذ.

obeikandi.com

قانون النزاعات المسلحة:

لا شك في أن المبادئ الأساسية لإجرّاء المناورات حول القوة وتطبيقها قد اختلفت قليلاً على مر القرون. ولكن النتيجة دائماً تتعلق في مستوى البت في مدى فعالية نوع القوة المطبقة، كما أن أي تفسير بنجاح تلك المناورات من عدمه كثيراً ما كانت شديدة التعقيد للغاية، بل ومهمة صعبة. ومن هذا المنطلق، فإن قانون النزاعات المسلحة يوفر نقطة انطلاق مناسبة لتسوية هذا التعقيد.

كانت المصالح الذاتية - منذ تاريخ مبكر - تعتبر المصدر الدافع لتنظيم الحرب، وظلت كذلك حتى الزمن الحاضر. فقد كان الحضارة اليونانية - في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد- وكذلك الحضارة الرومانية في وقت لاحق تعتبر من الحضارات المتقدمة في ذلك العصر، وقد كانت كلاهما تقومان باستخدام القوة وممارسة الكثير من أشكالها الرسمية وغير الرسمية، من أجل الحد من الإفراط باستخدامها، وعلى الأخص استخدام ذلك النوع الشرس للقوة بعد تحقيق الانتصار على إقليم أو شعب ما - حيث كان السلوك الوحشي والإفراط الشديد في استخدام كافة أساليب القوة هو المتبع حينذاك - ولكن القيادات الحاكمة في كلا الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية كانت تسعى جاهدة للحد من الضرر الذي قد تسببه كتائب الجنود الجامحة المنتصرين في الممتلكات، حيث كانت تلك القيادات ترغب في الاستفادة منها دون تدميرها أو العبث بها.

وجدير بالذكر هنا، بأنه وبعد ظهور معاهدة "ستفاليا" في عام 1648 رسمياً، فقد شرحت بنودها ظهور الدولة القومية، ونظام دفع الفائدة والجزية في نظام القانون الدولي، وإن كان ذلك ينطبق على المصالح الذاتية للقوى الغازية.

أما اليوم، فإن القانون الإنساني الدولي، وقوانين النزاعات المسلحة قد بدأت في الظهور في منتصف القرن التاسع عشر، وقد كانت تلك القوانين ترتكز في الأساس على الجهود المبذولة لتنظيم الحرب.

كما ظهرت - من بين القوانين الأخرى - مجموعة من القوانين التي تتناول جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية، والتي تتصل "كمّاً ونوعاً"

في الإفراط بتطبيق القوة التي يمكن تطبيقها.

وهكذا، فإنه من المرجح أن يكون السعي في اعتبار الإبادة الجماعية، على سبيل المثال، مسألة إستراتيجية كبرى، وكما كانت نتيجة القرار الذي اتخذ على أعلى درجات المجالس. ويمكن هنا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

- كمحرقة اليهود في الحرب العالمية الثانية.
- والحرب بين قبيلتي "الهوتو" و"التوتسي" في "رواندا" و"بوروندي" و"الكونغو"، وذلك منذ الفترة الواقعة من عام 1970وحتى عام 1990.
- والتطهير العرقي الشامل الذي قامت به جميع الجهات الصربية وعلى كل جبهات القتال في "البوسنة والهرسك" ضد المسلمين في البوسنة في عام 1990.

وهنا، يمكن الجزم بأن الإبادة الجماعية - لغير المرغوب فيهم أو للطرف الضعيف في أي صراع - لا تزال تعتبر إستراتيجية مقبولة - وقد تكون المفضلة - لدى بعض القادة في العالم الحديث والتي تقوم في معظمها على الكراهية العرقية والدينية والعشائرية والخلافات، حيث لا مكان فيها لحقوق الضعيف أو للعواطف.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هناك ثلاثة مفاهيم أساسية معاصرة لقانون النزاعات المسلحة:

1 -الضرورة العسكرية.

2 -الضرورة الإنسانية.

3 -التناسب في مقاييس القوى.

تبدو كل هذه المفاهيم واضحة بما فيه الكفاية لكي تميز بين المقاتلين والمدنيين، ولذلك فإن ثمة شعور بالقلق لابد وأن يرافق تنفيذ الإجابة على كل جزء من الأسئلة التي تتعلق بمدى ونوع القوة، إن وجدت، وبشكل لا يمكن تبريره في ظل الظروف السائدة في جوهرها، وعلى الحدود المفروضة لاستخدام القوة.

إن الهجوم الوحيد المسموح للقوى هو على المناطق التي تمثل أهدافاً عسكرية مشروعة الاستهداف؛ مع استبعاد الهجوم على تجمعات المدنيين دون التحذير التلقائي (لأن ذلك الهجوم سيصنف ضمن العمليات الإرهابية بوصفه جريمة حرب) كما أن

استخدام القوة يجب أن يكون متناسباً مع الحاجة العسكرية المستهدفة على وجه التحديد.

أما ما تبقى من هذا القسم، فإنه سيهتم بمفهومي الضرورة العسكرية والتناسب، وما يتصل باستخدام القوة، كما ستتم الإشارة إلى أن هذه القضية الإنسانية سوف تُدرس بالتفصيل تحت عنوان عريض هو "الحروب" وذلك في الفصل الثامن.

تعكس الموضوعية الكامنة في هذه المفاهيم ببساطة حقيقة واقعة، وهي أن الموارد العامة للطرفين المتنازعين - والموارد البحرية على وجه الخصوص - قد يُقبل في المقام الأول، ولكن على شكل استعراض للقوة من قبل كلا الطرفين المتناحرين، وعلى سبيل المثال، نشر السفن قبالة شواطئ المناطق المستهدفة ؛ وعلى العكس من ذلك، فإن الدول والمنظمات التي نعتقد من أنها تشارك في القتال من اجل بقائها ذاته، قد تقرر أن تقوم باستخدام الحد الأقصى لتطبيقات القوة، بما في ذلك الإبادة الجماعية، بل وقد يصل الأمر إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل، مما يستدعي القيام برد متناسب.

كما أن إظهار مطابقة في تطبيق القوة ضمن الظروف السائدة يمكن ذكره في هذا السياق، وذلك فيما قامت به الصين خلال فترة قصيرة حيث كبدت فيتنام خسائر كبيرة في وقت مبكر من عام 1979والذي غضب بسبب سلسلة من الشتائم التي كيلت له، كما ويُنظر إلى هذا السلوك على أنه سلوك غير قانوني.

في 17 شباط / فبراير، قام قادة الصين الغاضبون بإرسال أكثر من 120 ألفاً من قواتهم عبر الحدود المشتركة من أجل القيام بإجرّاء عقابي للعمليات المنفَّذة من قبل قوات "مالونغوشي" حيث احتلت المراكز السكانية، والأصول التي يتم الاستيلاء عليها باعتبارها صينية، وعلى الرغم من أن بعض الجنود كانوا قد توغلوا لأربعين كيلومتراً في عمق الأراضي الفيتنامية. ثم، وبعد ثلاثة أسابيع فقط، انسحبوا.

على الرغم من استعار القتال الكثيف في كثير من الأحيان، فإن حجم التوغل تم بعناية، وكانت القيادة العسكرية الصينية على قناعة بأنها يجب - على حد قول قيادات الجيش الصيني - تلقين الفيتناميين درساً لا ينسوه.

ولكن في الحقيقة، فإنه، وعلى الرغم من أن مثل هذه الإجرّاءات تقاس بدقة، إلاّ أنه من غير المرجح أن تكون هذه الإجرّاءات - في أكثر الظروف - أليمة للغاية بالنسبة للفيتناميين.

ويمكن هنا - على سبيل المثال أيضاً - ذكر ما حدث في " كورسك" السوفييتية في يوم 5 تموز/ يوليو من عام 1943 في عهد الدكتاتور السوفيتي "جوزيف ستالين" الذي اعتقد أنه لابد من شن حرب شعواء على كل ما يمكن أن يؤدي إلى نهاية الاتحاد السوفييتي، وقد كانت تلك قناعة ثابتة في سياسة "ستالين" - وعلى الأخص على الدول التي كانت قد سقطت قبلاً في أوروبا الشرقي تحت ظل الحكم النازي، والتي ستغدو الجمهوريات السلافية.

وهكذا، وانطلاقاً من تلك القناعات الراسخة لدى القيادة السوفييتية، فقد اشتبك السوفييت بجيوشه الجرارة البالغة أكثر من 1.3 مليون جندي و(3600) دبابة و(2400) طائرة مع الجيوش الألمانية الجبارة المجهزة بأكثر من (900000) جندي من ألماني و(2700) دبابة و(2000) طائرة في معركة حاسمة خلال الحرب العالمية الثانية، والتي استخدم الجيش الأحمر فيها أقصى إمكانياته، ومما لا شك فيه، أنه قام باستخدام كافة الوسائل المتاحة له للفوز، ولذلك، فقد كان من المتوقع من كل جندي سوفييتي أن يقاتل حتى الموت إذا لزم الأمر. وقد كانت معارك "كورسك" المتطرفة تمثل واحدة من سلسلة متصلة من قوة المعارك، حيث كان الروس على استعداد لخوض معركة الفناء.

ومن أنواع القياس التي يمكن استخلاصها، ما حدث في عام 1970 حيث تم التوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، والتي صادق عليها منذ ذلك الحين حوالي مئة وتسعين بلداً.

كانت الحجة التي أدلى بها - في كثير من الأحيان - دعاة ما تسمى المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية إلى أن معظم الدول التي وقعت على تلك المعاهدة، كانت لمجرد أنها ليست هي نفسها الواقعة ضمن خطر تهديد الأسلحة النووية، وأن بقاء برامجها الوطنية في مأمن من الخطر.

وهنا، فإنه يجب تغيير هذا الوضع الذي لا يزال موقع جدل، لأن الدول المتضررة ستسارع إلى امتلاك القدرة على صنع قنابل نووية، وستبذل قصارى جهودها من أجل تحقيق ذلك. وتبرز هنا أمثلة متعددة على عدم تقيد بعض الدول دول مثل الهند وباكستان وإسرائيل وكوريا الشمالية على ما يبدو للمصادقة على هذا المنطق.

تكمن النقطة الهامة هنا في أنه، وخلال الظروف القصوى، فإن زيادة الطلب في الحصول على القوة سيتم تحديده وفق ما تمليه الضرورة لتحقيق التوازن.

لكن هذا لا يعني أن قانون النزاعات المسلحة عبارة عن قانون غير عملي، ولا يملك سوى التشدق الفارغ. بل على العكس من ذلك، فإن هذا القانون يعتبر رمزاً لنتائج الجهود الرامية إلى الحفاظ على مستوى معين من السلوك المتحضر داخل النشاط غير الحضاري للحرب.

ومن نافل القول هنا، فإنه، وعلى الرغم من أن القوة النسبية، فإن هذا التناسب المتوازن يعتبر من الضروريات العسكرية التي سعى إلى تنفيذها الحلفاء أثناء الهجوم الانتحاري ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

توضح هذه النقطة على أنه ليس هناك شك في أن ألمانيا قد ربحت الحرب في البداية، وقد ألقي القبض على القائد الملكي ومنفّذ الهجوم، السير "آرثر هاريس" وحوكم وأعدم بوصفه مجرم حرب .كانت الحملات التي قادها "هاريس" قد اتهمت بمحاولة استهداف الاقتصاد النازي واقتصاد الحرب مباشرة، والتي ركزت بدلاً من ذلك على إزالة المساكن أيضاً وقتل المدنيين من الرجال والنساء الذين يعملون في المصانع. واستمرت الطلعات الجوية لقوات "هاريس" في معظم الليالي ولمدة أربع سنوات هاريس في قصف المدن الألمانية، مما أسفر عن مصرع حوالي نصف مليون من المدنيين وتشريد ملايين آخرين.

وقد فعل "ستالين" في "كورسك" ما فعله "هاريس" وذلك بدعم من رئيس الوزراء البريطاني "تشرشل" والرئيس الأمريكي "روزفلت" وقوات أخرى متحالفة مع المتطلبات البيئية التي غيرت صورة الاعتقاد لخوض حرباً وطنية من البقاء على قيد الحياة، على الرغم من الحالة البائسة التي تبرر اتخاذ تدابير يائسة.

ومن الجدير بالذكر؛ من جهة أخرى، على أن ثمة توافقاً عاماً في الآراء بين الخبراء القانونيين وهو أنه وبموجب قانون النزاعات المسلحة التي كانت قائمة في ذلك الوقت، فإن "هاريس" لم يتصرف بشكل خاطئ ويبدو أن الأمر ليس كذلك اليوم.

ظهر تطبيق فكرة التناسب في الولايات المتحدة خلال الفترة التي كان فيها "كولن باول" رئيساً لهيئة الأركان المشتركة خلال الفترة الواقعة من 1989 إلى 1993 والتي تضمنت فترة حرب الخليج عام 1991.

كان "باول" مقاتلاً أمريكياً مخضرماً، لكن كان لديه موقف مغاير لما قامت به الولايات المتحدة وكذلك في الحرب الهند الصينية، وقد كان يعزو ذلك إلى أن إستراتيجية الولايات المتحدة قد أدت بها إلى عدم ملاءمتها مع القالب السياسي والثقافي والعسكري في تلك المنطقة. لكن "باول" كان ينظر إلى ذلك من منظور الجندي، حيث كانت إحدى النتائج - على حد تعبيره - في كثير من الأحيان، وحين ينتهي القتال، فقد كان الرجال يدفعون الثمن السياسي لانعدام الكفاءة.

ولكن، وفي وقت لاحق، وحين أصبح رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، فقد تغيرت صياغة عقيدة "باول" عن الالتزام، وعن أن تصرف الرجال والنساء في المعركة - بالإضافة إلى أمور أخرى - يجب أن يكون في استخدام القوة (من قبل الولايات المتحدة) وينبغي أن يكون التصرف ساحقاً وغير متناسب مع القوة التي يستخدمها العدو.

قد يبدو هذا المبدأ - للوهلة الأولى - متعارضاً مع قانون النزاعات المسلحة، ومع أن "كولن باول" قد يكون من المعقول أنه كان ينوي تحقيق نصر سريع وحاسم، مما قد يعني أن عدد الضحايا سيكون قليلاً نسبياً، وبالتالي أكثر إنسانية من حيث النتيجة.

ثمة حجة مماثلة قد أدلى بها هؤلاء المنظرون عن مفاهيم القوة الجوية التي استخدمت لتبرير اندلاع الحرائق وتفجير المدن الألمانية والمدن اليابانية في الحرب العالمية الثانية، والتي - على سبيل المثال - قد أحدثت الفجوة بين النظرية والتطبيق، حيث ثبت أنها مروعة وعلى نطاق واسع.

وللسبب نفسه، وحين كان الغزو الياباني للأراضي قد امتد، وبعد أن خسرت القوات الأمريكية أعداداً كبيرة من قواتها، فقد أصبح من الضروري قيام صناع القرار في البنتاغون وواشنطن باتخاذ قرارات حاسمة بهذا الشأن، إذ لا يمكن استمرار تكبيد القوات الأمريكية تلك الخسائر الفادحة، ولذلك، فقد تعالت الصيحات بين القادة باستخدام قوة رادعة والتي كانت مؤيدة لاستخدام القنابل الذرية للمرة الأولى في التاريخ، وذلك لإجبار اليابان على الاستسلام من دون أن يضع جندي واحد من قوات الحلفاء بموطئ قدم على الجزر اليابانية.

وهكذا كان، حيث أقلع طاقم القاذفة الإستراتيجية الأمريكية "بي 29 سوبر" التي حملت اسم "إينولا غاي" (الذي كان اسم والدة قائد البعثة) الذي أسقط القنبلة الذرية على مدينة "هيروشيما" في السادس من شهر آب / أغسطس 1945، وقد لاحظ أن المناورات واستخدام القوة كان سيصبح أمراً مألوفاً لأجيال من الإستراتيجيين والمحاربين، بدءاً من الكسندر إلى "ناثان بيدفورد فورست" إلى تنظيم القاعدة. ولكن، فيما إذا كان الكسندر - بالنسبة لباقي أشكال المعارك - يمكنه ترشيد مسائل "الكم و"النوع" بالمقارنة مع الدمار الذي حل بمدينتي "هيروشيما وناغازاكي" بعد ذلك بثلاثة أيام فإنه، بطبيعة الحال، ستعتبر مسألة أخرى تماماً.

الإستراتيجية من الناحية الأخلاقية:

إن استخدام القوة يمكن أن يكون من الشواغل الأخلاقية، والتي قد تتراوح في مستواها وكثافتها ضمن الضمير الإنساني ابتداء من القتل المعنوي، وصولاً إلى الحرب المعلنة رسمياً، فإن الإرادة الوطنية تعتبر مجرد مسار عمل معين فقط!. وثمة تفسير فريد هنا، وهو أن تطبيق القوة التي تعتمد على البعد الأخلاقي قد وضعتها ثورة مهندسها الزعيم الهندي "المهاتما غاندي"، الذي قاد نضال بلاده من أجل الاستقلال عن بريطانيا في النصف الأول من القرن العشرين.

كانت إستراتيجية "غاندي" كثيراً ما توصف بأنها سياسة العصيان المدني، وبوصفها دولة لن تستخدم الحملات العنيفة للمقاومة السلبية، بل من خلال الإعلان

عن إجراءات مثل عدم التعاون (رفض دفع الضرائب والأسعار، والاجتماعات السلمية غير الرسمية، رفض أداء الواجبات المدنية، وما إلى ذلك)، بالإضافة إلى عدم التعامل بالعنف المضاد، والصوم، احتجاجاً على سياسة التعطيش، والاعتصام وما شابه ذلك، وهكذا، وفي وقت لاحق، فإن استخدام هذه التقنية قد نجحت في التكيف مع البيئات الأخرى - إلى جانب غيرها - من قادة الثورات، بما فيها "مارتن لوثر كينغ" في الولايات المتحدة في الفترة الممتدة م عام 1950 وحتى 1960، و"ليش فاليسا" في بولندا في الفترة الواقعة بين عامي 1970 و1980.

وهكذا، فإن غاندي في هذه الحالة كان في حال غير مستقرة، لكنه مع ذلك، فقد وصف "العصيان المدني" بأنه ليس سوى جزء من السياسة الأوليمبية الرومانية لأن المفهوم الإستراتيجي هو أعمق بكثير من مجرد عصيان أو عدم امتثال للأوامر.

لقد منح اسم "غاندي" عنواناً لهذه التقنية المتقدمة - وذلك في ظل سلطة الألغام البريطانية في الهند - والتي أطلق عليها اسم "ساتياغراها" وهي في معجم "السنسكريتية" تترجم على أنها "البحث عن الحقيقة"!

تضمنت سياسة "ساتياغراها" القيام بالاحتجاجات السلمية احتجاجاً على أنواع الأنشطة المذكورة أعلاه ولكن لربما كان الأمر أهم من ذلك، حيث أعرب "غاندي" أيضاً عن فلسفة أخلاقية لرفض العنف. وكذلك رفض الرد على المنهجية والسياسة والاجتماعية والمادية لطغاة العدوان البريطاني، وقد كانت "ساتياغراها" تحقق حالة من السلطة الأخلاقية التي كان يعتقد غاندي من خلالها أنها تعبر عن عدم شرعية وأخلاقية الحكم البريطاني، مما أدى إلى هزيمته في النهاية.

من الناحية التاريخية، فإن السعي الدائم لاستخدام يعتبر هدفاً ثابتاً تقريباً في معظم المواجهات على وجه التحديد، كما أن استخدام للعنف المنظم سيفرض الكثير من التكاليف المادية، والألم، وتدمير الأصول، والموت، أما وفق طريقة "غاندي" فقد قلب الكثير من المفاهيم الإستراتيجية رأساً على عقب، وذلك حين تحولت طريق المقاومة إلى مقاومة سلمية قوية للغاية، من دون استخدام العنف كما حدث في نزاعات كثيرة في شتى بقاع الأرض، والتي أدت في بعضها إلى استخدام الأسلحة

النووية والتي، في الواقع، قد حولت عودة العنف ضد مرتكبيها من قبل الجيش.
وهكذا، فإن المفاهيم القانونية والإنسانية، والتناسب، والحرب العادلة، تعتبر من أساسيات التوازن بين الشعوب، وهذا ما يتكشف في طريقة "غاندي" حيث أنه، استطاع أن ينتصر على قوة الجنود الذين قتلوا المحتجين السلميين، لكنهم أصبحوا محط سخط وكراهية.
وكما حدث لاحقاً في بعض الأحيان، وللمفارقة، فإن عدم اللجوء إلى العنف من قبل المتظاهرين قد أصبح مانعاً حقيقياً لعدم تطوير أساليب الردع التي قد تكون قاتلة، فقد كانت سياسة اللاعنف "ساتياغراها" مستمدة من الناحية الأخلاقية، وغير متناسقة كإستراتيجية سلبية.
لقد أشار "مكيافيللي" في الفصل الثاني إلى استنتاج أن كثيراً من تجارب القادة الذين استخدموا الأساليب العنيفة للقوات المسلحة لدحر معارضيهم وعزلهم قد منيت بالفشل، ولكن كان لدى البعض الآخر من القادة قناعات فولاذية بعيدة عن القناعات السلمية لسياسة "غاندي" السلمية، وهكذا وفي وقت لاحق، أكد الزعيم الثوري الصيني "ماوتسي تونغ" أن جميع القوى السياسية تأتي من وجود فوهة البندقية، وكذلك كانت قناعات الزعيم السوفييتي "ستالين" وخلال مناقشة حول النفوذ أو غير ذلك من الكنيسة الكاثوليكية، وقف ليقول: كم "بابا" يكون للشعب"؟.
كانت سياسة "ساتياغراها" تمثل استثناء ملحوظاً بوجه الوحشية المحسوبة لمثل هذه التعبيرات عن سياسات القوة. ولكن من المهم أن نقدِّر ذلك، مثلها في ذلك مثل كل مفهوم إستراتيجي، فقد كانت "ساتياغراها" قد وجدت سابقة لزمانها، كما كان "غاندي" واتباعه في مواجهة أقل تحضراً من قبل المستعمرين البريطانيين، وهذا ما يبرر احتمال أنهم كانوا قد تعرضوا لدرجة من الوحشية التي لا يمكن لفلسفة "البحث عن الحقيقة " أن تتحملها كثيراً.
وهكذا، فإن وسائل إجرّاء المناورات وتطبيق القوة قد تغيرت بشكل يصعب التعرف عليها على مر القرون. ولذلك، فقد تمت الاستعاضة عنها بغيرها أو بما يكملها من

بين الأمور الأخرى، كالخيول، والسفن، والمركبات الميكانيكية البرية والطائرات والمركبات الفضائية حتى؛ والمقاليع وكذلك تم استبدال الأقواس والسهام، بقاذفات القنابل والمدافع الرشاشة، والقذائف الموجهة الدقيقة، وقريباً في الفضاء المسلح وببرامج عسكرية قاصفة من المدارات الفضائية حول الأرض، عدا عن الأسلحة الغامضة التي لا تزال تعتبر كأسرار عسكرية.

ولكن مبادئ استغلال قوة النيران والمناورات - إلى حد كبير - لا تزال على حالها حيث ضرورة وجود الوضع النسبي والتوازن والذي له الحق في اعتبار أن السلاح لا يزال على نفس القدر من الأهمية اليوم في الحروب. ذلك لأن نوعية الأسلحة هي معيار الفصل في المعارك على مر العصور منذ تاريخ الإسكندر، وجنكيز خان، والذين كانوا يجدون البحث من أجل تطوير آلاتهم الحربية، وعتلاتهم القاذفة للهب والحجارة، وربما كانوا يعجبون بقدراتها، ويستخدمونها في المواقف المحرجة أو الحاسمة، ومطابقة تلك القوة لذلك الهدف، ولكن، هجوم تنظيم القاعدة على مدينة نيويورك والمناورة المستخدمة، واستخدام القوة الكبيرة في تحقيق الهدف الذي اعتبر على أنه هو أكثر بكثير من كونه تكتيكياً، وهذا ما يمكن إيجازه بعبارة واحدة على أنه: جوهر تطبيق الإستراتيجية.

obeikandl.com